الفصل الثانى

الصفويون ومن تلاهم

الصفويون

إيران الحديثة تبدأ من الأسرة الصفوية التى أسسها إسماعيل الأول المولود فى ١٧ يوليو عام ١٤٨٧ وتوفى بقم ٢٣ مايو عام ١٥٢٤ ثم صار ملكا (شاه) على إيران ابتداء من عام ١٥٠١ حتى عام ١٥٢٤. ولأول مرة منذ الفتح الإسلامى تصبح إيران دولة قائمة بذاتها، وكان إسماعيل يدعى أنَّه من سلالة أئمة الشيعة الاثنى عشر. وهو ادعاء لم يقم عليه أى دليل، وفرض المذهب الشيعى الاثنى عشرى على الدولة، على رغم الغالبية الساحقة من إيران كانوا فى ذلك الوقت من السُّنَّة. ولكنه وجد فى الانتماء إلى التشيع ما يميّزه تمييزا حادا عن الأتراك العثمانيين أهل السُّنَّة، الذين تطلعوا دائما لابتلاع إيران.

وقد اعتمد إسماعيل على الطريقة الصفوية. وهى طريقة صوفية. فحشد ٧٠٠٠ صوفى من القزلباشية فى أزركان واستطاع الانتصار على جيش أقاقويونلو بقيادة ألموند فى معركة شرور. وبهذا النصر استطاع الاستيلاء على إقليم أذربيجان، ونُصب ملكا فى تبريز عام ١٥٠١.

وقام بعد ذلك بتوسيع رقعة مملكته ففتح إقليم فارس وعراق العجم عام ١٥٠٣، وإقليم مازندران وجرجان ويزد عام ١٥٠٤ وديار بكر عام ١٥٠٥ – ١٥٠٧ واستولى على بغداد والعراقى العربى ١٥٠٨ وعلى شيروان ١٥٠٩ وفتح هرات ١٥١١م. وهكذا توطد ملكه فى إقليم خراسان (شرق إيران وجزء من أفغانستان) وهكذا أصبحت إيران كلها، حوالى عام ١٥١٠ تحت سلطانه. وكان وجود هذه الدولة الشيعية على حدود الدولة العثمانية، حافزا لكى يتحرك السلطان سليم الأول عام ١٥١٤ لغزو إيران وهزيمة جيش إسماعيل هزيمة ساحقة فى معركة «تشالدران»جالدران بعدها لم تقم لإسماعيل قائمة، وانكفأ على نفسه، وترك الأمر لوزرائه خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، إلى أن توفى فى ١٥٢٤.

وخلفه على العرش ابنه: شاه طهماسب (١٥٢٤ – ١٥٧٦) وهو فى العاشرة والنصف من عمره. فاندلعت حروب أهلية طوال العشر سنوات الأولى من حكمه بين الفئات المتنافسة

من القزلباش، فاغتصب سلطة الشاه رؤساء القزلباش وصاروا هم الحكام الحقيقيون فى إيران، لكن طهماسب، تحرك عام ١٥٣٣ وفرض سلطانه على زعماء القزلباش، واستطاع أن يقف ضد مطامع العثمانيين بقيادة سليمان القانونى، وضد مطامع الأوزبك فى وسط آسيا وقد هاجموا خراسان خمس مرات بين سنة ٩٣٠ و ٩٤٤ هـ وبعد أن استولى العثمانيون على بغداد عام ١٥٣٤ وعلى سائر العراق العربى، واحتلوا تبريز عدة مرات نقل طهماسب عاصمته من تبريز إلى قزوين، ثم عقدت هدنة بين طهماسب وبين العثمانيين فى آمَسيا كفلت لإيران عدم تعرض العثمانيين لها لمدة ثلاثين سنة.

شاه عباس الأول

وبعد وفاة طهماسب فى سنة ١٥٦٧ تولى الملك إسماعيل الثانى (١٥٧٦ – ١٥٧٧)، وخلفه بعد ذلك بعام السلطان محمد شاه (١٥٧٨ – ١٥٨٨) وتلاه شاه عباس الأول (١٥٨٨ – ١٦٢٩) ويعدّ عهده أزهى عهود إيران الحديثة.

لقد وجد نفسه بين خصمين خطيرين هما: العثمانيون من الغرب، والأوزبك من الشرق، فبدأ بأن تَرضَّى الأقوى، وهم العثمانيون، فعقد معهم معاهدة مهينة لإيران إذ تخلت بموجبها للدولة العثمانية عن مساحات واسعة من إيران. وبعد ذلك عمل على تكوين جيش قوى من عناصر أخرى غير القزلباش، عناصر من الجورجيين والجركس، وسمَّى هذا الجيش باسم «غلامان خاصة شريفه»: وقد تألف هذا الجيش من عشرة آلاف من الفرسان، ومن حرس خاص مؤلف من ثلاثة آلاف رجل؛ وفرقة من حملة البنادق مؤلفة من ١٢٠٠٠ جندى من الفلاحين الإيرانيين؛ وفرقة مدفعية من ١٢٠٠٠ جندى أيضا. لكنه لم يجرؤ على استخدام هذا الجيش ضد الأوزبك إلا فى سنة ١٥٩٨ وقد انتصر عليهم انتصارا كبيرا قرب مدينة هرات التى كان الأوزبك قد استولوا عليها قبل ذلك بعشر سنوات. فلما أمَّن جبهته الشرقية، انصرف إلى الجبهة الغربية فهاجم العثمانيين واستطاع عام ١٦٠٧ طرد آخر جندى عثمانى فى إيران بحسب حدودها التى صدرت فى معاهدة أمسيا سنة ١٥٥٥ بين إيران والدولة العثمانية.

وقد نقل شاه عباس عاصمة مملكته من قزوين إلى أصفهان عام ١٥٩٨ ومالبث أن جعل منها عاصمة من أجمل عواصم الدنيا، ومن هنا جاءت العبارة: «أصفهان فيم جهان» (أصفهان نصف الدنيا). فأمر ببناء مدارس ومساجد وخانات وحمامات، وأروع هذه

المبانى: مسجد شاه، الذى بدئ به فى سنة ١٠٢٠ هـ/ ١٦١١، ومسجد شيخ لطف الله، الذى بدئ به فى سنة ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣م، ويقومان على ميدان هو من أجمل الميادين، ويسمى «نقش جهان» (صورة الدنيا) وبلغت سائر الفنون أوجها فى عهد شاه عباس.

واستمر حكمه ٤٤ سنة عزز خلالها سلطة الأسرة الصفوية بطرد القوات العثمانية والأوزبكية من الأراضى الفارسية.

وهو الحاكم الفارسى الذى رعى التجارة والفنون حتى بلغت المنجزات الفنية فى عهده أعلى مستوياتها فى تاريخ إيران.

كان عباس الأول (وقد عرف أيضا باسم عباس الكبير) الابن الثالث للسلطان محمد شاه، ولد فى ٢٧ كانون الثانى (يناير) سنة ١٥٧١، واعتلى عرش بلاد فارس سنة ١٥٨٨ فى فترة حرجة من تاريخ الأسرة الصفوية وكان حكم والده الكليل البصر ضعيفا مما أدى إلى تدخل شيوخ العشائر التركمانية التى جلبت الصفويين إلى الحكم وظلت تؤلف العمود الفقرى لقوة البلاد العسكرية كما أن الانقسامات بين تلك العشائر التى عرفت باسم القزلباشية قد أضعفت الدولة ومكنت أعداءها من الأتراك العثمانيين فى الغرب والأوزبك فى الشرق من شن غزوات متتالية على الأراضى الفارسية.

وقد وجد الشاه عباس لدى اعتلائه العرش أمامه مهمتين عاجلتين أولاهما إعادة سلطة الملكية والثانية طرد القوات العثمانية والأزبكية من البلاد ولكنه أدرك أيضا عجزه عن القتال فى جبهتين فى آن واحد فوقع فى سنة ١٥٨٩ معاهدة صلح مع العثمانيين وبذلك أمن من خطرهم وأصبح حرا فى مهاجمة الأوزبك ولكنه مع ذلك لم يتمكن من شن هجوم كبير عليهم.

وعلى أثر ذلك قرر عباس تأليف جيش دائم وكان ذلك مفهوما جديدا فى ذلك العهد إذ كانت الجيوش تؤلف كلما دعت الحاجة إليها من فرسان العشائر، وأخيرا تمكن عباس من أن يبادر اعداءه بالهجوم وفى سنة ١٥٩٨ أوقع بالأوزبك هزيمة ساحقة واستعاد السيطرة على «خراسان» ثم قاد فى سنة ١٦٠٢ سلسلة من الحملات الناجحة على العثمانيين فاستعاد ما سبق لهم أن استولوا عليه من أراضيه وأخرجهم من تبريز وروان والعراق.

وقد أظهر عباس تسامحا دينيا غير اعتيادى ومنح الجماعات المسيحية امتيازات كثيرة لم يتمتعوا بشىء منها فى السابق.

وقد شـهد عهد عباس الأول أيضا نشـاطا تجاريا ودبلوماسيا لم يسبق له مثيل وحاول البرتغاليون والهولنديون والانكليز السـيطرة على تجارة الخليج والمحيط الهندى وقد سمى ميناء بندر عباس نسبة إليه.

ويمتاز عهد عباس أيضا بتشـجيع الفنون والصناعات اليدوية وازدهارها وتحت رعايته أصبحت صناعة السـجاد من أهم صناعات البلاد وصار يشاهد فى قصور الأغنياء ليس فى إيران وحدها بل فى خارجها أيضا كما بلغ إنتاج المنسـوجات الحريرية أرقى مسـتوياته وكذلـك فن التصويـر ونقل المخطوطات وتجليد الكتب وأشـغال الخزف فـى ذلك العهد أصبحت جميعا من الفنون الإيرانية التى لا تضاهى.

لقد حكم الشاه عباس الأول بلاده بحماسة وتفان، وحرص على استتباب الأمن وسيادة العـدل واختلط بالناس للتعرف إلى مظالمهم ومظاهر الفسـاد فـى الحكومة وكانت معاقبته للمتهمين بالظلم والفساد حاسمة وسريعة.

هـذا هو الجانب المضئ من حكم عباس أمـا الجانب المظلم فقد كان يتمثل فى معاملته لأبنائه وأعضاء أسرته وكانت تجارب صباه ومحاولة عمه اعدامه قد تركت فى نفسه أثارها العميقـة وبعـد أن كان يثق بأولاده وأقربائه فى البدايـة ويعينهم حكاما وولاة صار يرتاب فيهم ويحتجزهم فى الحرم وكان الخوف من الاغتيال مسـيطرا على ذهنه وكلما زاد خوفه هذا ازداد اندفاعا فى تقتيل من يشـك فى ولائه وسمل عيونهم وقد أعدم أحد أبنائه (وهو عمل ندم عليه ندما شديدا) وسمل عيون اثنين آخرين منهم وسجنهم[1].

وبعد وفاة شـاه عباس سـنة ١٦٢٩ توالى ملوك ضعاف، مما أطمع جيران إيران فيها: ففى سـنة ١٧٠٩م قام جماعة من الأفغان الغلزيين فاسـتولوا على قندهار، وكان الصفويون يحتلونها منذ سـنة ١٦٤٨؛ وقام أفغان من العبادلة فنهبوا أجزاء واسـعة من خراسـان، وصارت الحدود الشرقية لإيران كلها مهددة، واستولى محمود زعيم الغزليين الأفغان، على كرمان فى سـنة ١٧١٩، وبعد ذلك بعامين هزم جيشـا صفويا فـى معركة جلنأبه، (على بعد ٣٠ كلم شرقى أصفهان) فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ١١٣٤/ ٨ مارس ١٧٢٢، وحاصر أصفهان واسـتولى عليها الأفغان فى أكتوبر سـنة ١٧٢٢، ويقال أن ثمانين ألف قد هلكوا أثناء هذا الحصار من الجوع والأمراض.

---

(١) نجدة فتحى صفوة – جريدة الشرق الأوسط ١٦/ ١/ ١٩٩٤.

حكم الأفغان أصفهان طوال سبع سنوات ١٧٢٢ حتى سنة ١٧٢٩. ومن ناحية أخرى قام العثمانيون فى سنة ١٧٢٦، فانتهكوا الهدنة بينهم وبين إيران والقائمة منذ سنة ١٦٣٩ وأرغموا الحاكم الأفغانى، واسمه أشرف، على الإقرار بالاحتلال العثمانى الواقعى لأجزاء من غرب وشمال غرب إيران.

وهنا قام زعيم قبيلة افشار، ويدعى نادرخان، وطرد الأفغان من أصفهان فى سنة ١٧٢٩، وأعاد حكم الصفويين فى شخص طهماسب الثانى، لكن نادرخان ما لبث أن استغل النصر لنفسه، فعزل طهماسب الثانى سنة ١٧٣٢ لصالح عباس الثالث وكان قاصرا فتولى هو الوصاية عليه، وبعد ذلك بأربع سنوات تولى هو الملك باسم: نادر شاه، وهكذا زالت الدولة الصفوية فى سنة ١٧٣٦م.

وتولى نادر شاه حكم إيران من سنة ١٧٣٦ إلى ١٧٤٧، فكان جنديا شجاعا قديرا استطاع أن يسترد لإيران الأراضى الإيرانية التى استولى عليها العثمانيون والروس والأفغان، وأعادت روسيا: باكو، ودربند واستولى على قندهار فى مارس سنة ١٧٣٨، واحتل غزنة فى يونيو، ودخل ثمسار، ووجه حملة إلى المُغَل فى الهند ودخل دلهى فى ٢٠ مارس ١٧٣٩؛ وعاد إلى إيران بعد أن فرض على إمبراطور المغل جزية ضخمة مقدارها عشرون مليون روبية، وغنم عرش الطاووس والماسة الشهيرة: كوهى نور، وتنازل له إمبراطور المغل- ويدعى آنذاك محمد شاه- عن كل الأراضى الواقعة غربى نهر السند، وفى طريق عودته غزا جيش نادر شاه التركستان وبلاد ما وراء النهر وخوارزم، ومن أجل هذه الفتوحات فى الشرق نقل نادر شاه عاصمته من أصفهان إلى مشهد.

لكنه كان شديد البخل: إذ احتفظ بالغنائم التى حصل عليها من حملته فى الهند فى خزانة خاصة بقلعة نادرى فى خراسان، ولم ينفق منها على الجند ولا على الرعية، وإنما فرض الضرائب الباهظة على الرعية لينفق من حصيلتها على مغامراته الحربية، ولهذا كرهه الجند كما كرهته الرعية. فقامت جماعة من ضباطه باغتياله فى أول جمادى الثانية سنة ١١٦٠ هـ/ ١٠ يونيو سنة ١٧٤٧.

فلما قتل انتشرت الفوضى العارمة، وقامت أسرة زند بتولى الحكم فى جنوبى إيران وكان من أكبر رجالها: كريم خان زند. لكن بعد وفاته فى سنة ١٧٧٩ قامت الخلافات الداخلية بين أسرة زند، مما أغرى أسرة قاجار، التى كانت قد استبدت بالحكم فى شمالى

إيران وكانت عاصمتها هى أستر آباد بالزحف على بلاد أسرة زند، وكان أقا محمد خان قاجار قد هرب من شيراز حيث كان الزند قد أسروه، وقاموا أولا بالتمكين لنفسه بين أسرة قاجار، ثم سار إلى الزند فانتصر عليهم فى سنة ١٧٩٥ م.

وأول سلاطين القاجار هو أقا محمد شاه. وقد جعل عاصمة ملكه طهران. ومن ثم صارت طهران لأول مرة فى تاريخ إيران عاصمة لإيران. واستطاع أن يركز الإدارة فيها. وبذلك صارت فى إيران إدارة مركزية قوية، وكان قاسيا مع خصومه، فقضى عليهم دون رحمة. وكان غدارا حقودا. لهذا اغتيل فى ٢١ ذى الحة سنة ١٢١١/ ١٧ يونيو سنة ١٧٩٧ ولم يمض على تتويجه غير عامين اثنين: إذ قتله اثنان من جنوده. وتولى الملك بعده ابن أخيه: فتح على شاه.

وأسند السلطان قيادة جيوشه لولى عهده عباس ميرزا المولود فى شهر سبتمبر عام ١٧٨٩ فى مدينة ناوة بإيران.

وبالرغم من أنه لم يكن أكبر أولاده إلا أنه سماه وليا للعهد، وعينه حاكما لولاية أذربيجان فى ١٧٩٨ وكان عباس ميرزا أول من أدخل الأساليب الأوروبية العسكرية بلاده.

وكان هناك فى عهد فتح على شاه تنافس شديد بين فرنسا وبريطانيا وروسيا على «النفوذ والمصالح فى الشرق ومؤامرات ومناورات تقوم بها الدول الأوروبية للسيطرة على إيران واشتبك فتح على شاه فى حرب مع روسيا فى سنة ١٨٠٤ بشأن السيادة على جورجيا (كرجستان) وكان حاكما قد غير ولاءه من إيران إلى روسيا وكانت القوات الإيرانية المؤلفة من ٣٠,٠٠٠ مقاتل خلال تلك الحرب التى دارت حوال تسع سنوات (١٨٠٤ - ١٨١٣) قد أسفرت تلك الحرب خسارة إيران معظم أراضيها فى كرجستان وأدرك عباس ميرزا ضرورة إصلاح الجيش الإيرانى القاجارى وإدخال الأساليب العصرية عليه.

بدأ عباس ميرزا هذه العملية بإيفاد عدد من الطلاب الإيرانيين إلى أوروبا للاطلاع على الأساليب العسكرية الأوروبية وتعملها وقد ذهبت أوروبا للاطلاع على الأساليب العسكرية الأوروبية وتعملها وقد ذهبت المجموعة الأولى منهم إلى انجلترا فى سنة ١٨١١، ثم أعقبتهم مجموعة ثانية فى سنة ١٨١٥.

وفى سنة ١٨١٢ أسس ميرزا على فى مدينة تبريز عاصمة أذربيجان «مطبعة»، وشجع ترجمة الكتب العسكرية الأوروبية وطبعها كما أسس فى المدينة نفسها مصنعا للبارود ومسبكا لصنع المدافع.

واستقدم إلى إيران عددا من المستشارين العسكريين البريطانيين وعهد إليهم بتدريس الضباط الإيرانيين الفنون العسكرية لمجموعات المدفعية ووسائل التعاون بين المدفعية والمشاة ونتيجة ذلك برز الجيش الإيرانى فى الحملات التى شنها على الأتراك العثمانيين بين سنتى ١٨٢١ و ١٨٢٣ وإن لم تنته الحرب لصالح الإيرانيين أيضا.

ثم نشبت الحرب مع روسيا مرة أخرى فى سنة ١٨٢٦ إذ استغل فتح على شاه وفاة القيصر الروسى الكساندر الأول وانشغال البلاد بذلك لشن الحرب على روسيا مرة أخرى، وتحالف مع انجلترا ضدها، وتولى عباس ميرزا قيادة القوات الإيرانية أيضا، واستطاع خلال السنة الأولى من الحرب أن يستعيد جميع الأراضى التى خسرتها إيران فى الحرب السابقة وكان جيشه وخاصة سلاح المدفعية يضاهى الجيش الروسى فى تنظيمه وقوته بل يكاد يكون متفوقا عليه ومع ذلك فإن التفوق العددى الروسى والانضباط العسكرى الصارم إضافة إلى رفض فتح على شاه تعزيز قوات عباس ميرزا وتعويض خسائره بعناد، طالبا إليه الاكتفاء بما لديه، كل ذلك أدى إلى هزيمة القوات الإيرانية بصورة مأساوية، ولما توقف القتال فى سنة ١٨٢٨ كانت إيران قد فقدت جميع أراضيها فى منطقتى كرجستان والقفقاس.

كان وقع هذه الهزيمة على عباس ميرزا عظيما، فأصيب بخيبة كبرى، وفقد اهتمامه بالاصلاحات العسكرية وقضى السنوات الخمس الأخيرة من حياته فى المحافظة على مكانته كولى للعهد وفى منازعات متنوعة مع إخوته، وقد تدهورت صحته مثل تدهور معنوياته وبينما كان يقود حملة تأديبية ضد بعض العصاة فى خراسان قتل سنة ١٨٣٣، وكان عند مقتله فى الرابعة والأربعين من عمره[1].

ولقد كانت الدول الأوروبية الاستعمارية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تحاول التدخل فى شؤون إيران، خصوصا روسيا وانجلترا، وكان التنافس بين هاتين الدولتين مستمرا. لكنه بلغ أوجه ابتداء من سنة ١٨٠٠، فى عهد فتح على شاه، فقد ضمت روسيا لنفسها مقاطعة جورجيا فى سنة ١٨٠٠ وكانت تابعة لإيران، فدعا ذلك فتح على شاه للاستنجاد بنابليون بونابرت وعقد معه معاهدة فنكنشتين Finkenestein فى مايو سنة ١٨٠٧، وتقضى المادة الرابعة منها بأن تلتزم فرنسا بإعادة جورجيا إلى إيران، وفى مقابل ذلك تعهد فتح على شاه بإعلان الحرب على إنجلترا (المادة ٨) ؛ وبالسماح للجيوش الفرنسية بالمرور عبر إيران لغزو الهند، وكان ذلك من خطط نابليون الكبرى، لكن هذه المعاهدة صارت غير ذات موضوع عندما وقعت فرنسا مع روسيا معاهدة تلست Tilsitt فى

(١) نجدة فتحى صفوة – جريدة الشرق الأوسط ٢٥/ ١٠/ ١٩٩٥.

٢ يوليو سنة ١٨٠٧. وبمقتضاها توقف العدوان بين فرنسا وروسيا. وبذلك صارت روسيا مطلقة اليد، فاعتدت على إيران وأرغمتها بموجب معاهدة جُلستان (١٢ أكتوبر سنة ١٨١٣) على التخلى لها عن كل مقاطعات القوقاز. وأصبح للأسطول الروسى وحده الحق فى العمل فى بحر الخزر. ثم وقع حادث على الحدود بين إيران وروسيا اتخذته روسيا ذريعة لإعلان الحرب ضد إيران فى سنة ١٨٢٦، وانتهت هذه الحرب بمعاهدة تركمانجاى (٢٢ فبراير سنة ١٨٢٨) وبموجبها فرضت على إيران شروطا فى غاية القسوة: إذ تنازلت لروسيا عن أريفان ونخشوان. وصارت الحدود بين الدولتين على الأراكس. وكان على إيران دفع تعويض فادح. وأهم من ذلك منح الروس «امتيازات» بموجبها يتمتع الروس المقيمون فى إيران بامتياز عدم المحاكمة أمام المحاكم الإيرانية. فكانت هذه «الامتيازات» من أكبر البلايا على السيادة الإيرانية فى إيران نفسها، إذ سرعان ما طالبت انجلترا بالحصول لرعاياها على «امتيازات» مماثلة ومن هذا التاريخ – أى سنة ١٨٢٨ – صار تدخل الدول الأوروبية فى إيران تدخلا سافرا كاسحا مدمرا لكل مقومات إيران القومية. حتى صارت نهبا لتنافس الدول الاستعمارية خصوصا روسيا وانجلترا.

وتوفى فتح على شاه فى سنة ١٨٣٤ وخلفه حفيده محمد شاه. فحاول أن يسترد الأراضى الشرقية التى استولى عليها الأفغان. لكن انجلترا هبت لمساعدة الأفغان. فاضطر محمد شاه إلى فك الحصار على هرات. ذلك أن انجلترا من أجل حماية الهند جعلت من سياستها الإبقاء على أفغانستان دولة حاجزة بين امبراطوريتها فى الهند وبين إيران وروسيا من ناحية أخرى. وأرسلت انجلترا فى سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٦ جيشا من قواتها فى الهند للدفاع عن هرات. وانتهى الأمر بأن اضطرت إيران فى سنة ١٨٥٦ إلى الاعتراف باستقلال أفغانستان والتخلى نهائيا عن مدينة هرات لأفغانستان.

الفتنة البابية

وفى عهد محمد شاه وقعت فتنة البابية: إذ ادعى سيد على محمد ولد فى شيراز فى أول المحرم سنة ١٢٣٥ هـ/ ٢٠ أكتوبر سنة ١٨١٩، أو فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٢٠ بحسب رواية أخرى. وادعى فى صيف ١٨٤٤ أنه «الباب» أنه «المهدى» وأنه «صاحب الزمان» الذى ينتظره الشيعة ليملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا. وأخذ هذا «الباب» فى الهجوم العنيف على المجتهدين «والملالى»، واستطاع أن يجتذب إليه الأتباع. وسافر إلى مكة للحج. ويقال إنه أعلن هناك أنه «المهدى». وفى ربيع سنة ١٨٤٥ عاد إلى شيراز. وكان قد كتب

وهـو فـى مكة كتابا عنوانه «صحيفة بين الحرمين» بين فيـه أركان دعوته. وبهذا الكتاب وبالخطب التى راح يلقيها فى مسـاجد شـيراز آثار الفتن والاضطرابات فى مدينة شـيراز. فقبض على هؤلاء الدعاة وأحضروا أمام والى شيراز، واسمه ميرزا حسين خان أجودان باش، فعاقبهم عقابا شديدا وأمر بطردهم من شيراز. وأرسل السلطان محمد شاه مبعوثا يدعى سيد يحيى دارابى للتحقيق فى الأمر، فاجتذبه الباب. وصار من أتباع الدعوة.

وفـى تلك الأثنـاء، كان قد اعتنق هذه الدعوة الجديدة فى طهـران أخوان هما: ميرزا حسـين على نورى (الذى سيصبح فى المستقبل باسم: بهاء الله) وأخوه ميرزا يحيى نورى (وسـيصبح فى المستقبل باسم: صبح الأزل) بعد أن التقيا بملا حسين. وهذان الأخوان هما اللذان سيؤسسان ديانة البهائية.

وبعـد أن كان أتبـاع البـاب يعتمدون التقيـة والكتمان، أخذوا منذ سـنة ١٨٤٨ فى الإعلان عن أنفسـهم وبانفصالهم عن الإسلام، وعقدوا اجتماعا فى بدشت. واشتركت فى هذا الاجتماع سـيدة جميلة شـاعرة اسمها زرين تاج ولقبت بلقب ستشـتهر به فيما بعد وهـو «قـرة العين» كما لقبوها بلقـب «جناب طاهرة» وكانت قد ولـدت فى قزوين وأبوها كان هـو المـلا صالح، أحد رجال الدين، واشـترك فى هذا الاجتمـاع كذلك: بهاء الله، وملا حسين البشرونى.

وفى سـنة ١٨٤٨ تولى العرش ناصر الدين شـاه، واسـتمر فى الحكم حتى اغتيل فى سـنة ١٨٩٦، وقد أرسـل قوة لمهاجمة هؤلاء المجتمعين. الذين تحصنوا فى ضريح الشيخ الطبرسـى بالقرب من بارفروس، وقاوموا بقوة. فقتل ملا حسين، واستسلم الباقون فذبحوا عن بكرة أبيهم فى رمضان سنة ١٢٦٥ هـ/ يوليو أغسطس سنة ١٨٤٩.

وبعد ذلك بقليل قام البابيون، فى مدينة تبريز بإقليم فارس، بفتنة قادها سيد دارابى، وكان يلقـب بـ «وحيد» وتحصـن البابية فى القلعة القديمة بمدينـة تبريز، لكنهم ذبحوا جميعـا بعد عدة أيام، فى يناير سـنة ١٨٥٠، كذلك قامت فـى مدينة زنجان (فى شمال غربـى إيران) فتنـة أخرى أكبر، تزعم البابية فيها ملا محمـد على الزنجانى، الملقب بـ «الحجـة» وتحصنـوا فى قلعة على مردان خان، وكان عددهـم حوالى ثلاثة آلاف. فتمكن جيش السلطان من ذبحهم جميعا فى فبراير سنة ١٨٥٠.

وفـى طهـران، قبل إعـدام الباب بأربعة أشـهر، قتل فى طهران سـبعة من أتباعه، أحدهم هو عم الباب.

وحاول اثنان من البابية الاعتداء على شاه ناصر الدين فى شوال سنة ١٢٦٨ هـ/ ١٥ أغسطس سنة ١٨٥٢)، ولكن المحاولة أخفقت. وأدى ذلك إلى قتل العديد من البابية، وبينهم الشاعرة السابقة الذكر الملقبة بـ «قرة العين» إذ سجنت ثم خنقت ودليت فى بئر لا يزال الناس يزورنه حتى اليوم.

أما الأخوان غير الشقيقين: ميرزا حسين على نورى (بهاء الله) وميرزا يحى نورى (صبح الأزل) فنفيا إلى العراق.

أما الباب نفسه، سيد على محمد، فقد لجأ إلى أصفهان فى حماية حاكمها منوجهر خان معتمد الدولة، وهو من جورجيا، فلما مات منوجهر استدعى الوزير حاجى ميرزا أغاسى «الباب» إلى طهران. لكنه قبل وصوله إلى طهران قبض عليه وأرسل سجينا إلى حصن ماخو فى جبال أذربيجان، فى صيف سنة ١٨٤٧. وبعد اندلاع اضطرابات البابية نقل إلى سجن أشدورص جهريق. ثم نقل فى يوليو سنة ١٨٤٧ إلى تبريز ليحاكم أمام لجنة من المجتهدين، ورأى الوزير ميرزا تقى خان، الذى عينه ناصر الدين شاه، أن فى قتل «الباب» قضاء على الفتن. وأصدرت لجنة المجتهدين المذكورة قرارا بإعدام الباب، فتم إعدامه رميا بالرصاص فى نهاية شهر شعبان ١٢٦٦ هـ/ يوليو سنة ١٨٥٠ فى تبريز، وأعدهم معه أحد أتباعه هو: ملا محمد على اليزدى: إذ ربطا معا بحبل فى عمود بثكنة تبريز، ورميا بالرصاص. والكتاب الرئيسى الذى سجل فيه «الباب» عقيدته عنوانه: «البيان»، وله نسختان: عربية موجزة جدا، وفارسية مطولة.

والعقيدة البابية تقوم على أربع قواعد:

١ – نسخ الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالصلاة، والصوم، والزواج، والطلاق، والميراث مع الإقرار بنبوة محمد ﷺ، وقد ختم دور نبوته فى سنة ١٢٦٠ هـ/ ١٨٤٤ م وهى سنة إعلان «الباب» لدعوته.

٢ – تأويل الألفاظ المتعلقة بالآخرة تأويلا روحانيا خالصا، مثل الجنة، النار، الموت، البعث، النشور، الميزان، الصراط، الساعة، ألخ على أساس أنها لا تتعلق بنهاية هذا العالم المادى، بل بنهاية دور النبوّة. ذلك أن الله يفنى العالم المادى عند نهاية كل دور نبوّة، ثم يخلقه من جديد بكلمة النبىّ التالى.

٣ – وضع نظم وشعائر جديدة: فالقبلة ليست نحو مكة، بل نحو مقام «الباب»؛ تشريع جديد للمواريث، إلخ.

٤ – انتظار «من يُظْهره الله».

وللعدد ١٩ قداسة خاصة عند البابية: فالسنة تنقسم إلى ١٩ شهرا، وكل شهر يتكون من ١٩ يوما. وكل ١٩ يوما يجب على الباب أن يستضيف ١٩ شخصا حتى لو لم يستطع أن يقدم إليهم أكوابا من الماء. والقاتل يعاقب بالامتناع عن الجماع ١٩ سنة. ولا يجوز للبابى أن يحوز من الكتب أكثر من ١٩ كتابا.

ناصر الدين شاه والاحتكارات الأجنبية

ونعود إلى ناصر الدين شاه، الذى تولى حكم إيران فى سنة ١٨٤٨ واستمر فى الحكم حتى اغتيل فى سنة ١٨٩٦. فنقول إنه حاول الحد من تدخل الروس فى شؤون إيران والعدوان على أراضيها، لكن دون جدوى. إذ ازداد الروس عدوانا على إيران: فاستولوا على طشقند فى سنة ١٨٦٥، وقضوا على خانت خوقند؛ وفى سنة ١٨٢٦ استولوا على بخارى. ومن قاعدتهم الجديدة فى كرسنوفو دسك على الشاطئ الشرقى لبحر الخزر تقدموا تدريجيا نحو آسيا الوسطى. وفى سنة ١٨٧٣ قضوا على خانت خيوة؛ وفى سنة ١٨٨١ أخضعوا قبائل التركمان وهزموهم هزيمة ساحقة فى معركة جوك تبه Gok Tepe. وفى سنة ١٨٨٤ فرغوا من غزو ما وراء بحر الخزر باستيلائهم على مره. وصارت الحدود الجديدة بين روسيا وإيران عند أترك.

ولكى يصلح الأحوال الاقتصادية فى إيران اعتمد ناصر الدين شاه سياسية خطرة حمقاء جلبت على بلاده بلايا مادية فادحة، إذ أخذ فى منح الدول الأوروبية امتيازات للاحتكار الاقتصادى. ونتيجة ذلك كانت غالبية الموارد الاقتصادية لإيران، عند نهاية القرن التاسع عشر، احتكارات للدول الأوروبية تستغلها لصالحها، وكل ذلك فى مقابل مبالغ ضئيلة تدفع لإيران لتلبية حاجات الشاه المباشرة. فمثلا فى سنة ١٨٧٢ منح أحد البريطانيين، ويدعى البارون جوليوس دى رويتر Juluis de Reuter الحق الوحيد فى استغلال كل المعادن فى إيران «باستثناء الذهب والأحجار الكريمة»، وبناء المصانع وتشييد السكك الحديدية، وحفر الترع والقنوات وسائر وسائل الرى، واستغلال الغابات، وانشاء بنك وطنى، وإنشاء شبكة للتلغراف، ومراقبة الجمارك. فتدخل الروس وضغطوا على الشاه ضغطا حمله على إلغاء الامتياز الذى حصل عليه جوليوس دى رويتر، لكنه اضطر إلى تعويضه عن هذا الإلغاء بالإذن له بإنشاء البنك الإمبراطورى لإيران فى سنة ١٨٨٩. بيد أن الروس حصلوا على امتياز شامل، هو إنشاء بنك للإقراض.

وفى سنة ١٨٩٠ منح احتكار التبغ لشركة بريطانية. وهنا، وبتحريض من جمال الدين الأفغانى، أصدر المجتهد الأكبر فى سامرا فتوى بتحريم تدخين التبغ إلى أن يرجع الشاه عن قراره هذا. وقام المجتهدون والملاوات فنظموا مظاهرات فى شيراز، وأصفهان، وتبريز ضد منح احتكار التبغ لشركة بريطانية. وإزاء هذه الحركة العظيمة اضطر ناصر الدين شاه إلى إلغاء الامتياز المذكور. وفى ديسمبر سنة ١٨٩١.. وكان لذلك أثر بالغ فى الأحوال السياسية فى إيران. فلأول مرة فى تاريخ إيران الحديثة يخضع الشاه للرأى العام، والذى تولى تحريك الرأى العام هم رجال الدين. ومن هنا بدأ النفوذ السياسى لطبقة رجال الدين فى إيران، هذا النفوذ الذى سيتعاظم منذ ذلك الحين شيئا فشيئا حتى يستولون على السلطة فى مارس ١٩٧٩.

الحركة الدستورية

وخلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر تألفت جمعيات (أنجُمن) سياسية متأثرة بالأفكار السياسية فى أوروبا، وأشاعت جوا من التمرد على الفساد وعلى استفحال النفوذ الأجنبى، وراح أعضاؤها يطالبون بعزل الموظفين المرتشين والإداريين المستبدين، وطرد الأجانب أصحاب الامتيازات. وأفضت هذه الحركة إلى التركيز على المطالبة، بوضع دستور (مشروطيت) لحكم البلاد.

فاضطر مظفر الدين على شاه، الذى تولى الحكم بعد مصرع ناصر الدين شاه فى سنة ١٨٩٦: إلى إصدار الدستور فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٦، واجتمع أول برلمان (مجلس شورای ملّی) قبل ذلك بثلاثة أشهر، أعنى فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٠٦. لكن خلفه، محمد على شاه، حاول بكل الطرق تعويق تطبيق الدستور، ومنع تنفيذ القوانين التى أقرها مجلس شورای.

وكان مجلس شورای ملّی (البرلمان) مؤلفا من ١٥٦ عضوا، منهم ٦٠ عن طهران، و ٩٦ عن سائر المحافظات. وكان الانتخاب عن دوائر طهران بالاقتراع المباشر. أمّا فى سائر المحافظات فقد كان يتم على درجتين بواسطة هيئات ناخبين.

والدستور الذى صدر فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٦ كان يحتوى على ٥١ مادة تتعلق كلها بتكوين مجلس النواب (مجلس شورای ملّی) ومجلس الشيوخ وواجباتهما. وهذا ليس دستورا بمعنى الكلمة. لهذا كان لابد من إكماله بدستور متمم صوت عليه مجلس شورای

ملّى وأصدره محمد على شـاه فى ٢٩ شـعبان سـنة ١٣٢٥/ ٧ أكتوبر سـنة ١٩٠٧. وهذا الدستور المتمم كان يحتوى على ١٠٧ مواد تتناول حقوق الشعب الفارسى، وسلطات الشاه، وحقوق أعضاء البرلمان، وحقوق العرش، وسلطات الوزراء. واختصاصات المحاكم، وتنظيم مالية الدولة، والجيش.

وتوفى مظفر الدين على شـاه فى يناير سـنة ١٩٠٧، وبوفاته انتهت المرحلة الأولى من الثورة الدستورية فى إيران. (مشروطيت) وهى مرحلة تمت دون إراقة دماء تقريبا.

ثم بدأت المرحلة الثانية من الثورة الدسـتورية مع تولى محمد على شاه الحكم فى ٨ يناير سـنة ١٩٠٧، إذ كان يعارض هو ووزراؤه تطبيق الدسـتور. وكان «المجلس» يعارض اقتراض أيـة مبالغ جديدة من الدول الأجنبيـة، وكذلك قرر طرد البلجيكيين من إدارة الجمارك، وتم للمجلـس ما أراد. كذلك قرر المجلس عدة قـرارات تتعلق بالإصلاحات المالية، وأصدر قانونا يقضى بأن تسترد الدولة كل الأراضى التى كانت فى حيازة أصحابها على أساس نظام «تيول». وفى الوقت نفسـه تشـكلت عدة جمعيات (أنجمن) فى طهران وسائر المحافظات للدفاع عن الدسـتور. ولما عين الشاه فى ٢ مايو سـنة ١٩٠٧ ميرزا على أصغر خان أمين السلطان رئيسا للوزراء اشـتد الصراع بين الشـاه والوطنيين. وعلى أثر ذلك شبت اضطرابات فى البلاد، كان بعضها بتحريض من الشاه وأنصاره هم أنفسهم لخلق الفرصة للبطش بالدستور والمدافعين عنه. وهنا غزت تركيا شمال غربى إيران، واتهمت روسيا بالتواطؤ مع الشاه ضد الدستور والشعب الإيرانى. واستقر فى أذهان الناس وجود مؤامرة تواطأ فيها الشاه ورئيس وزرائه أمين السلطان مع روسيا ضد مجلس شورى ملّى. وفى ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧ اغتيل أمين السلطان بواسطة عضـو فى إحدى الجمعيات الشـعبية. وضعفت سـلطة الدولة فـى الأقاليم، وقامت مجالس إقليمية (أنجمنهان أيالتى وولايتى) فى أقاليم عديدة تولت هى إدارة الإقليم.

وفى ٧ أكتوبر سـنة ١٩٠٧ اضطر الشاه إلى إصدار الدستور المتمم، وفى ١٢ نوفمبر مثل أمام البرلمان وأقسم يمين الولاء للدستور، وذلك للمرة الرابعة!! لكنه فى ١٥ ديسمبر حاول القيام بانقلاب، وقبض على رئيس الوزراء: ناصر الملك ووزراء آخرين. فاتحدت الجمعيات الشعبية فى طهران والأقاليم للدفاع عن الدستور ومجلس شورى ملّى.

وازدادت العلاقـات سـوءا بين الشـاه وبين الشـعب ممثلاً فى المجلـس النيابى وفى الجمعيات المحلية، حتى قامت الحرب فى ٢٣ يونيو سـنة ١٩٠٨ بين القوات العسكرية الموالية للشاه وبين الوطنيين، وقبضت قوات الشاه على ثلاثين من كبار الزعماء الوطنيين،

وخنق اثنان منهم دون محاكمة فى ٢٤ يونيو سنة ١٩٠٨. وفى ٢٧ يونيو أصدر الشاه قرارا بحل البرلمان وإلغاء الدستور بزعم أنه مخالف للشريعة الإسلامية (!!) وبهذا انتهت المرحلة الثانية من الثورة الدستورية فى إيران.

فاندلعت الثورة فى طهران، ثم فى تبريز، وطردت قوات شاه منهما، واستمرت المقاومة حتى أبريل سنة ١٩٠٩، إلى أن تدخلت الجيوش الروسية بدعوى حماية أرواح وأموال الأجانب!!.

لكن الوطنيين لم يسكتوا، ونظموا قواتهم تحت قيادة سردار أسد، وكانوا من قبيلة بختيار، وتكون جيش آخر فى رشت بقيادة سيه دار أعظم محمد ولى خان، وزحفوا على طهران ودخلوها فى يوليو سنة ١٩٠٩. فهرب الشاه محمد على شاه واحتمى بالسفارة الروسية فى طهران، وعقد اجتماع قرر عزل محمد على شاه وتولية ابنه: سلطان أحمد، وكان لا يزال قاصرا، فوضع له مجلس وصاية على العرش. وفى ٩ سبتمبر وصل الشاه المخلوع – محمد على شاه – إلى كييف فى روسيا.

وأجريت انتخابات تشريعية فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٠٩، تم بموجبها انتخاب مجلس تشريعى هو الثانى. ولما كانت الخزانة خاوية اقترح عمل قرض انجليزى روسى، لكن البرلمان رفضه فى سنة ١٩١٠ لأن شروطه تتناقض مع استقلال البلاد، لكن المجلس اتخذ قرارا بالاستعانة بمستشارين أجانب لتنظيم مالية البلاد، وفى سنة ١٩١١ استعين بخبراء أمريكيين للمالية، وخبراء سويديين للشرطة ووصل الخبير الأمريكى مورجن شوستر Morgan Shuster إلى طهران فى مايو سنة ١٩١١ ومعه مساعدون قلائل. وفى ١٣ يونيو سنة ١٩١١ أصدر البرلمان قانونا يمنح الخبير الأمريكى سلطات واسعة جدا.

وفى ١٧ يونيو سنة ١٩١١ وصل الشاه المخلوع فجأة إلى إيران، محاولا استرداد عرشه وفى نفس الوقت قام أخوه: سالار الدولة فأعلن العصيان فى إقليم كردستان.

وكانت روسيا خائفة من استدعاء الخبير الأمريكى الذى لم يحفل بمطالبها فى إيران. فانتهزت روسيا فرصة حادث نشأ عن مصادرة أملاك شجاع السلطنة – الأخ الأصغر للشاه المخلوع – بسبب تورطه فى فتنة سالار أخيه، فتدخلت روسيا وطالبت باعتذار الحكومة الفارسية، وتلت ذلك بتقديم إنذار، فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١١، مدته ٤٨ ساعة، يطلب من الحكومة الفارسية طرد الخبير الأمريكى، وعدم الاستعانة بأجانب إلا بموافقة روسيا

وبريطانيـا، وبدفـع تعويض نفقات الحملة العسـكرية التى زحفت بها روسـيا من مدينة رشت. واحتجت انجلترا لدى القيصر فى بطرسبرج على هذا الإنذار الذى لم تُستشر فيه.

ورفض البرلمان هذا الإنذار الروسـى. فتقدمت القوات الروسـية صوب قزوين، وجرت مناوشـات بين القوات الروسـية والقوات الفارسـية فى رشـت، وأنزلى، وتبريز. ولما رأى الوصى على العرش، ناصر الملك، أنه لاقبل لإيران بمواجهة الجيش الروسـى، اضطر إلى حل البرلمان فى ٢٤ ديسـمبر سـنة ١٩١١. وعزل الخبير الأمريكى شوستر، وبذلك انتهت المرحلة الثالثة والأخيرة من الثورة الدستورية فى إيران. وعُلق الدستور، وظل معلقا حتى ٧ يوليو سنة ١٩١٤، حين افتتح الفصل التشريعى الثالث للبرلمان، لكنه ما لبث أن حُلّ فى ١٥ نوفمبر سـنة ١٩١٥ عندما زحفت الجيوش الروسـية على قزوين، وترك معظم أعضائه طهران ولجأوا إلى مدينة «قم». وعلّق الدستور مرة أخرى.

ولم يعد البرلمان إلا فى سـنة ١٩٢١. وابتداء من ذلك التاريخ صار البرلمان جزءا أساسيا من نظام الحكم فى إيران، ولم يحلّ إلا لفترة قصيرة فى سـنة ١٩٥٣ عندما قام د. محمد مُصَـدق بحـل المجلس. وفى إثره قـام مجلس شـورای ملّى جديد، اسـتمر فى الوجود حتى سـنة ١٩٦١ عندما أصدر الشـاه محمد رضا بهلوى مرسوما امبراطوريا بحل المجلس وانتخاب مجلس جديد استمر حتى ١٩٧٩.

دستور ١٩٠٦

وتجدر الإشـارة إلى بعض البنود الرئيسـية فى دستور سـنة ١٩٠٦ والدستور المتمم فى سنة ١٩٠٧:

١ – تقضى المادة الأولى من الدسـتور المتمم بأن الدين الرسمى فى إيران هو الإسـلام على مذهب الشيعة الاثنا عشرية، وبأن يكون الشاه مسلم الديانة على المذهب الشيعى الاثنا عشرى.

٢ – وتقضـى المادة الثانية بأنه «لايجوز بأى حال من الأحوال وفى أى ظرف من الظروف أن يصدر البرلمان قانونا يتعارض مع المبادئ المقدسة للإسلام أو مع القوانين التى وضعها خير البشـر (عليه وعلى آله السـلام)، وتقضى نفس المادة بتشـكيل لجنة من خمسـة مجتهديـن على الأقل«مهمتهـا النظر الدقيق فى كل الأمور المقترحة على البرلمان، ومن حقهـا أن ترفـض أو تنبذ، كليا أو جزئيا، كل اقتراح يتعارض مع الشـريعة المطهرة.

بحيث لا تتخذ صفة التشريع. وفى هذه الأمور تتبع وتنفذ قرار لجنة العلماء هذه. وهذه المادة يظل معمولاً بها دون أى تعديل إلى حين ظهور حجة الزمان (عجّل الله فَرَجه).

وهـذه المادة الخطرة هى التعبير الدستورى عمَّا يسمى بـ «ولاية الفقيه»، أى ولاية أهل الدين على القوانين التى تصدرها الدولة. وهكذا نرى أن ما قرره الانقلاب الإسلامى الجمهورى فى إيران سنة ١٩٧٩ ولا يزال معمولاً به إلى اليوم قد تقرر من قبل فى الدستور المتمم الصادر فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧.

لكن إبان حكم رضا شاه وابنه محمد رضا شاه لم يعمل بهذه المادة.

٣ – وتقضى المادة ٢٧ من الدستور المتمم بأن «السلطة القضائية هى من اختصاص المحاكم الشرعية فى الشرعيات. ومن اختصاص المحاكم العدلية فى العُرفيات».

٤ – وتقضى المادة ٢٦ من الدستور المتمم بأن «سلطات الشاه كلها تصدر عن الشعب. وأن الدستور ينظم استعمال هذه الحقوق».

٥ – وتقول المادة ٣٥ إن «السيادة أمانة، هى بمثابة هبة إلهية أودعها الشعب فى يد الشاه».

٦ – وتقضى المادة ٢٤ بأن «عقد المعاهدات والاتفاقات. ومنح الامتيازات التجارية. والصناعية والزراعية وغيرها سواء كان ذلك لمواطنين فارسيين أو لأجانب لا يتم إلا بموافقة مجلس شورای ملّى. فيما عدا المعاهدات التى يجب أن تبقى سرية لأسباب تتعلق بأمن الدولة وللصالح العام».

٧ – وتقضى المادة ٢٢ بأن «كل اقتراح بنقل أو بيع جزء من الموارد الوطنية أو إدارة الحكومة أو الحاكم يخضع لموافقة مجلس شورای ملّى».

٨ – والمادة ٢٧ من الدستور المتمم تقرر أن السلطة التشريعية هى من اختصاص الشاه ومجلس شورای ملّى ومجلس الشيوخ «السيناه» ولكل حق اقتراح القوانين، ولايصبح قانونا إلا إذا كان مطابقاً لقواعد الشريعة الإسلامية، وحظى بموافقة كلا المجلسين (شورای ملّى. والسيناه)، ونال تصديق الشاه. أما إصدار القوانين الخاصة بالضرائب وبمصروفات المملكة فمن اختصاص مجلس شورای ملّى وحده.

٩ – أما السلطة التنفيذية فمن اختصاص الشاه و «يمارسها الوزراء وموظفو الدولة باسم صاحب الجلالة الشاهانية وفقا للشروط المنصوص عليها فى القانون».

١٠ – الشاه هو الذى يعين الوزراء ويعفيهم من مناصبهم، أما سائر الموظفين فى الدولة فيتم تعيينهم وعزلهم بحسب اللوائح التى تحدد ذلك.

١١ – الشاه هو الذى يصدر المراسيم والأوامر المنفذة للقوانين، لكن لا يجوز له أن يعلق تنفيذها أو أن يؤخرها بأى حال من الأحوال. كما لا يجوز له نقضها.

١٢ – الشاه هو القائد الأعلى لكل القوات العسكرية. وهو الذى يعلن الحرب، ويعقد الصلح (مادة ٥١).

١٣ – القضاة والنائب العام يعينون بمرسوم شاهانى (مادة ٨٠ و ٨٣ من الدستور المتمم). لكن المادة ٨١ تقضى بأنه لا يجوز عزل القضاة إلا بموافقتهم.

١٤ – ومن أهم اختصاصات المجلس النيابى تحديد ميزانية الدولة والموافقة عليها. وذلك فى المادة ١٨ من الدستور الأصلى. والمادة ٩٦ من الدستور المتمم.

إيران والحرب العالمية الأولى

وتقاسمت روسيا وانجلترا النفوذ فى إيران بمقتضى اتفاق أعلن فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧، فبموجب هذا الاتفاق قسمت إيران إلى منطقة نفوذ بريطانية، ومنطقة نفوذ روسية، وتفصل بينهما منطقة محايدة.

فلما قامت الحرب العالمية الأولى فى يوليو سنة ١٩١٤ صارت إيران. على الرغم من حيادها. ساحة قتال بالنسبة إلى الجيوش التركية المتحالفة مع ألمانيا. والروسية، والبريطانية. فعمت فيها الفوضى والقلاقل طوال مدة الحرب، وغداة انتهائها أرادت بريطانيا أن تحكم قبضتها وحدها على إيران. فاقترح لورد كيرزون Lord Curzon عقد معاهدة بين بريطانيا وإيران، وعقدت المعاهدة فى ٩ أغسطس سنة ١٩١٩ بين حكومة إيران والحكومة البريطانية، وكانت المعاهدة ترمى إلى بسط الحماية البريطانية على إيران كلها، منتهزة فرصة انسحاب القوات الروسية بسبب أحداث الثورة الروسية. لكن الوطنيين الإيرانيين وكذلك الأمريكيون والفرنسيون عارضوا هذه المعاهدة، وثار الوطنيون فى مقاطعتى أذربيجان وجيلان، وأعلنت جيلان، فى مايو سنة ١٩٢٠قيام جمهورية سوفيتية فيها. لهذا لم يتم التصديق على المعاهدة المذكورة.

بيد أن الإنجليز استطاعوا الحصول على الموافقة على إحلال ضباط فرس محل الضباط الروس فى فرقة «القوزاق». وهى فرقة كان ناصر الدين شاه قد أنشأها فى الجيش الفارسى

فى سـنة ١٨٧٩ على غرار فرق القوزاق فى الجيش الروسـى، واستخدمها ناصر الدين شاه كحرس خاص له. وكانت إنجلترا تهدف من وراء ذلك إلى وضع حكومة فى إيران تستند إلى الجيش، وتشرف انجلترا عليها بطريق مباشر أو غير مباشر.

وخـلال خريف سـنة ١٩١٩ وشـتاء. ١٩٢٠– ١٩٢١ اندلعت اضطرابـات فى منطقة طهران، وقامت مؤامرات عديدة دون نتيجة إلى أن قام سيد ضاء الدين بمساندة من العقيد رضـا خان، وهو ضابط كبير فـى فرقة القوزاق، بمؤامرة نجحت فى طهران فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٢١، وتم لهما الاستيلاء على الحكم. فاضطر الشاه أحمد إلى تعيين سيد ضياء الدين طباطبائى رئيسا للوزراء، وصار رضا خان وزيرا للحربية.

واستطاع سيد ضياء الدين طباطبائى عقد معاهدة مع روسيا، فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١، بموجبها تخلت روسـيا عن كل الامتيازات فى إيران التى كانت روسـيا قد حصلت عليها من قبل عهد القياصرة، وفى مقابل ذلك أعطى لروسـيا الحق فى التدخل المسلح فى إيران فى الحالة التى تكون فيها سـلامة روسـيا مهددة بتدخل أجنبى فى إيران. كذلك قررت المعاهـدة ألا تمنح إيران امتيازات للتنقيب عن البترول فى محافظات الشـمال الخمس إلا لروسيا دون غيرها من الدول.

لكن سياسـة سيد ضياء الدين ما لبثت أن اصطدمت بمصالح بعض الطبقات فى داخل إيران وبعداوة بريطانيا، لهذا اضطر إلى الاستقالة ومغادرة إيران. ولما يمض عليه فى الحكم إلا ثلاثة أشـهر. هنالك كلف الشـاه قوام السـلطنة بتولى الوزارة، وهو محافظ قديم لإقليم خراسان. فاعتمد قوام السلطنة على القوى التقليدية فى إيران، ووقف حركة الإصلاح التى كان قـد بدأها زين الدين طباطبائى. لكن بقـى العقيد رضا خان وزيرا للحربية فى الوزارة الجديدة. فقام رضا خان بإقرار النظام فى البلاد، وبعث بقوات عسـكرية لإخماد حركات العصيـان والاضطرابات فى أذربيجان، وجيلان، وخراسـان، وأخمد انتفاضات اللوريين والقشقبيين، والعرب فى الجنوب.

وإزاء نجـاح العقيد رضا خان فى إقرار النظام فى البلاد وإخماد كل الفتن والتمردات، صار أكبر شـخصية فى إيران وفى ٢٨ أكتوبر ١٩٢٣ تولى رضا خان رئاسـة الوزارة، وغادر الشاه أحمد إيران إلى أوروبا.

وقد ولد رضا خان فى سنة ١٨٧٨ فى قرية جبلية صغيرة بالقرب من بحر الخزر (البحر الكاسبى، بحر قزوين) لأسرة رقيقة الحال، وانخرط فى فرقة القوزاق، حوالى سنة ١٩٠٠،

وخدم فى هذه الفرقة فى طهران، وهمدان، وكرمنشاه. واشترك فى المعارك التى وقعت فى طهران فى عامى ١٩٠٨ و ١٩١١. وفى سنة ١٩٢١ صار وزيرا للحربية وكان برتبة كولنيل (عقيد).

وبعد أن صار رئيسا للوزراء فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٣ فكر فى إعلان الجمهورية؛ لكنه اصطدم حينئذ بمعارضة الطبقات التقليدية المحافظة، خصوصا رجال الدين وإزاء هذه المعارضة قام بمناورة بأن أعلن تخليه عن الحكم فى أوائل سنة ١٩٢٥، هنالك قامت المظاهرات الشعبية العديدة، وقامت مسيرات من رجال الجيش، ومن بعض النواب. وإزاء هذا التأييد الشعبى والعسكرى العارم، عاد إلى طهران فى فبراير سنة ١٩٢٥، وحصل من مجلس شورای ملی (البرلمان) على سلطات مطلقة تقريبا، وذلك بأغلبية ٩٣ صوتا ضد ٧. وفى ذلك الوقت أعلن الشاه أحمد عن عودته إلى إيران وتظاهر من أجله أنصاره. فقرر رضا خان أن يفوت الفرصة عليهم، واستصدر من البرلمان قرارا بعزل الشاه أحمد ونفيه هو وأفراد أسرة القاجار. وعين رضا خان رئيسا لحكومة مؤقتة فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٥. وفى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ صار ملكا على البلاد، وبهذا بدأت أسرة بهلوى تولى العرش فى إيران.

رضا شاه

وهكذا صار «العقيد» رضا خان الشاه الجديد فى إيران ابتداء من ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٥ واستمر على العرش حتى خلعه الحلفاء فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤١ ووضعوا مكانه ابنه محمد رضا.

وفى إبان حكمه كان يستلهم جاره، مصطفى كمال أتاتورك مؤسس تركيا المعاصرة. فأراد أن يجعل من إيران دولة عصرية حديثة تساير النهضة العالمية، وتأخذ بأسباب التقدم الأوروبية:

- فقام أولا بتنظيم القوات المسلحة، وكون أول جيش وطنى دائم.
- وحد البلاد، وقضى على سلطة زعماء القبائل المحليين، ووضع لإدارة المحافظات ضباطا من الجيش اتسموا بالضبط والربط، مع الحزم والقسوة؛ وفيما بين عامى ١٩٢١ و١٩٤١ صارت ميزانية الجيش ثلث ميزانية الدولة.
- نظم الوظائف وفقا للنظم الإدارية المتبعة فى الدول الأوروبية.

- أصلح النظام القضائى، وأصدر قانونا جنائيا فى سنة ١٩٢٦، وقانونا مدنيا فى سنة ١٩٢٨؛ وفى سنة ١٩٢٨ أيضا ألغى الامتيازات القضائية التى كان يتمتع بها الأجانب فى إيران؛ وكان طبيعيا، بسبب إصدار هذه القوانين الحديثة، أن يصطدم برجال الدين.
- وفى ميدان التعليم ألغى نظام «المكاتب»، حيث كان التلميذ يتعلم فى قاعدة صغيرة (مكتب) على يد أخوندة (رجل دين فى أدنى مراتب رجال الدين). وجعل التعليم إلزاميا للأبناء والبنات على السواء، والمناهج صارت عصرية تشمل العلوم الرياضية والطبيعية، إلى جانب العلوم اللغوية والدينية.
- أنشأ جامعة طهران فى سنة ١٩٣٥.
- وفى سنة ١٩٤٠ استولت الحكومة على كل مدارس الإرساليات الأجنبية وضمتها إلى وزارة المعارف، وصارت جزءا من مدارس الدولة.
- أصدر فى سنة ١٩٣٥ قرارا بمنع المرأة من ارتداء الحجاب.
- وفى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٤ أصدر مرسوما بمقتضاه أصبح اسم الدولة هو «إيران» بدلا من «فارس» لأن هذا الاسم الأخير قد صار رمزا لمهانة البلاد طوال القرنين السابقين.
- وفى سنة ١٩٣٢ أعلن سحب كل الامتيازات الممنوحة لشركة البترول الإنجليزية الفارسية، وإزاء تهديدات بريطانيا، رفع الأمر إلى عصبة الأمم، وأخيرا تم الاتفاق فى سنة ١٩٣٣ وبموجب هذا الاتفاق زادت عائدات الحكومة الإيرانية من البترول الذى تستخرجه تلك الشركة، ونقصت مساحة الأراضى الممنوحة لاستغلال الشركة، وفى مقابل ذلك حصلت الشركة على تجديد امتيازها لمدة ستين سنة أخرى.
- عمل على التقارب مع ألمانيا؛ وخصوصا بعد تولى هتلر الحكم فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣، وصارت ألمانيا ذات المكانة الأولى بين الدول الأجنبية فى التعامل مع إيران. واستعان بمستشارين عسكريين من الألمان. كما استعان بالشركات الصناعية الألمانية لإنشاء صناعة فى إيران. وقد بلغ عدد الخبراء الألمان فى إيران فى أغسطس سنة ١٩٤١ أكثر من ألفين. وبلغت تجارة إيران مع ألمانيا ٤٥٪ من مجموعة تجارة إيران مع الخارج.
- أما فى علاقاته مع دول الشرق الأدنى والأوسط. فقد اعتمد سياسة الصداقة وحسن الجوار مع الجميع. ففى يوليو سنة ١٩٣٧ عقد مع العراق وأفغانستان وتركيا، ميثاق سعد آباد، وبموجبه تتعهد الدول الأربع بضمان حدودها وبالتضامن فى الدفاع عن كل

دولة منها إذا هوجمت من دولة أخرى؛ ومع مصر تجسدت العلاقات الحميمة بزواج ابنه ولى العهد محمد رضا من الأميرة فوزية أخت الملك فاروق، فى سنة ١٩٣٩.

محمد رضا شاه

قبل أن يبدأ الهجوم الألمانى على روسيا فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ اجتاح البريطانيون والروس إيران فى يوليو سنة ١٩٤٠ واقتسام النفوذ فيها. وكانت الذريعة وجود مستشارين ألمان فى إيران. مع أن إيران كانت على الحياد. ولم يكن لهؤلاء المستشارين أى دور فى الجيش الإيرانى. وبدأوا عمليتهم بأن أرسلوا إلى شاه رضا فى يوليو سنة ١٩٤١ مذكرة دبلوماسية تطالب بطرد الألمان الموجودين فى إيران. لكن شاه رضا رفض مطلبهم وإزاء رفضه قررت انجلترا وروسيا بتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية التدخل عسكريا بقواتها فى إيران. وفى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤٢ دخلت القوات البريطانية فى جنوب وغرب إيران قادمة من العراق. واستقرت فى خوزستان وكردستان؛ بينما احتلت الجيوش الروسية شمالى إيران، وخصوصا مقاطعة أذربيجان فى الشمال الغربى، ومقاطعة خراسان فى الشمال الشرقى، ولم تتوقف انجلترا وروسيا عند هذا الحد. بل طالبتا أيضا بتخلى رضا شاه عن العرش لابنه محمد رضا. ثم نفوه إلى جزيرة دريس. ثم إلى جنوب إفريقيا حيث توفى فى مدينة جوهانسبرج فى ١١ يوليو سنة ١٩٤٤.

وتولى محمد رضا العرش فى ١٦ يوليو سنة ١٩٤٤، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وكان قد ولد فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٩ وتعلم الفنون العسكرية فى سويسرا، ثم عاد منها ليدخل المدرسة الحربية فى طهران.

وفى ٢٩ يناير سنة ١٩٤٢ فرضت انجلترا وروسيا على إيران معاهدة تحالف بالرغم من اعتراض كثير من نواب البرلمان. وتقضى هذه المعاهدة بأن تتعهد كلتا الدولتين بالدفاع عن إيران ضد كل اعتداء، وبصيانة واحترام سلامة أراضى إيرانى واستقلالها السياسى، وبانسحاب جيوشهما من إيران فى مدة أقصاها ستة أشهر من انتهاء الحرب.

وأوفت بريطانيا بتعهدها فسحبت جيوشها قبل ٢ مارس سنة ١٩٤٦. أما روسيا فقد ماطلت وتلكأت، وكانت قد أنشأت فى منطقتى احتلالها، فى أذربيجان، وكردستان أحزابا موالية لها، هى حزب «تودة» (الجمهور)، وحزب الحركة الجمهورية فى أذربيجان، وحركة الاستقلال الذاتى للاكراد فى كردستان وأقامت أول جمهورية مستقلة

فـى أذربيجـان، ثم جمهورية شـعبية كردية. وذلك فى نوفمبر سـنة ١٩٤٥. وإزاء تلكؤ الروس فى الانسـحاب. رفعت إيران الأمر إلى مجلس الأمن فى يناير سنة ١٩٤٦، وتحت تهديد الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا اضطرت روسـيا إلى الإذعان. وسحبت قواتها من إيران فى مايو سـنة ١٩٤٦. ومع ذلك ظل الروس يسـاندون «الجمهوريتين» الوهميتين اللتين لم تستطيعا الوقوف أمام قوات الشاه، التى دخلت أذربيجان وكردستان فى ديسمبر سنة ١٩٤٦.

وهكذا تحررت إيران من الاحتلال الروسى ومن قبله بقليل من الاحتلال البريطانى.

لكن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت توطد نفوذها فى إيران، الذى بدأ فى سنة ١٩٤٢ مع إنشـاء قيادة الخليج الفارسى التى تولت تحسين المنشآت الخاصة بموانئ خورمشهر، وبندر عباس. وبندر شـاهبور، وذلك لتوصيل الأسـلحة والمعدات إلى روسـيا عبر الموانئ والأراضى الإيرانية، وتلت ذلك بإرسـال مستشـارين عسكريين وماليين، وفى سنة ١٩٤٧ مدوا تطبيق «مبدأ ترومان» ليشمل إيران. كما شمل اليونان وتركيا، ومعنى ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية صارت ضامنة لاستقلال إيران وسلامة أراضيه.

وكانت سنة ١٩٤٩ سنة حافلة بالأحداث فى إيران:

(أ) ففى ٤ فبراير أطلق أحد أعضاء حزب تودة النار على الشـاه محمد رضا، فأصابه فى حلقه إصابة سـيظل الشـاه متأثرا بها طوال حياته. وعلى إثر ذلك صدر قرارا باعتبار حزب تودة خارجا عن القانون. وأعلنت الأحكام العرفية.

(ب) وبدأ تطبيق الخطة السباعية للإنماء الاقتصادى.

(جـ) وأنشـأ د. محمد مصدق الجبهة الوطنية، وكانت تتألف من اتجاهات سياسـية مختلفة، فكانت تضم حزبا ارهابيا أنشـئ فى سنة ١٩٤٣ وسانده زعيم دينى كبير التأثير هو آية الله كاشـانى، وحزبا من الوطنيين المنتسـبين إلى الطبقة الوسطى والمثقفين، ويدعى حزب إيران، وحزبا ثالثا يتزعمه خليل مالكى يتألف من المثقفين اليساريين.

وفى سنة ١٩٥٠ أنشأ الشاه «بنياد بهلوى» «مؤسسة» وجعلها تشرف على أراضى التاج الشاهنشـاهى الذى أعلن عن تخليه عنها لصالح الفلاحين والفقراء، فتولت هذه المؤسسـة توزيـع الأراضى التى يملكها التاج الإمبراطورى على صغار الفلاحين، وفى الوقت نفسـه عين الجنرال على رزماراه رئيسـا للوزراء لمحاربة الفسـاد المستشرى فى جهاز الحكومة،

ولما كانت محاربة الفساد قد طالت مصالح العديد من كبار الموظفين والأثرياء والمقاولين. فقد تآمر هؤلاء على قتله، وفعلا قتله فى ٧ مارس سنة ١٩٥١ عضو من جماعة «فدائيان إسلام».

وتقدم د. محمد مصدق فى أبريل سنة ١٩٥١ باقتراح فى البرلمان يقضى بتأميم صناعة البترول فى إيران. فوافق البرلمان بالإجماع على الاقتراح، ونتيجة لذلك صار د. محمد مصدق رئيسا للوزراء فى ٢٩ أبريل سنة ١٩٥١. فأعلن برنامج حكومته ويتلخص فى تنفيذ قانون تأميم صناعة البترول، وفى تعديل قانون الانتخابات البرلمانية والمحلية.

فواجهت «شركة البترول الأنجلو إيرانية«A.I.O.C الموقف بأن بدأت بوقف استخراج البترول من الآبار؛ فردت حكومة مصدق بالتدخل فى مصافى البترول فى عبادان فرفعت الشركة والحكومة البريطانية شكوى أمام محكمة العدل الدولية فى لاهاى. وذلك فى يونيو سنة ١٩٥١. فأعلنت الحكومة الإيرانية عدم اعترافها باختصاص محكمة العدل الدولية فى تناول هذه الشكوى، وقد أصدرت المحكمة فى يوليو سنة ١٩٥٢ حكما بعدم اختصاصها بنظر هذه الشكوى.

وتنفيذا لقانون التأميم أنشأت الحكومة الإيرانية، فى أكتوبر – نوفمبر سنة ١٩٥١، «الشركة الوطنية للبترول». فرد البريطانيون على ذلك بفرض حصار على تصدير البترول الإيرانى إلى الخارج.

وبسبب انقطاع عائدات البترول، بدأ الاقتصاد الإيرانى فى التدهور. واحس الإيرانيون بالضيق، فسخطوا على د. محمد مصدق وسياسته، وبدأ السخط فى البرلمان، وصاحبه اندلاع المظاهرات ضد الحكومة. وتكتل خصوم د. مصدق من العسكريين، وكبار الملاك، والمنتفعين بالشركة الأنجلو– إيرانية للبترول. وحاول الحرس الشاهنشاهى القبض على د. مصدق فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٣، لكن المحاولة أخفقت. وإزاء ذلك اتفق الشاه مع الجنرال زاهدى وبتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية على القيام بانقلاب عسكرى يتولاه الجنرال زاهدى. وللتمويه سافر الشاه إلى روما. فقام الجنرال زاهدى بانقلاب عسكرى وتولى رئاسة الوزراء بقرار من الشاه. وفى ١٩ أغسطس قبض على مصدق وعدد كبير من وزرائه. وحوكم هؤلاء أمام محكمة عسكرية، قضت على د. مصدق بالسجن ثلاث سنوات لأنه عارض الفرمان الشاهنشاهى الذى يقضى بتعيين جنرال زاهدى رئيسا للوزراء فخالف بذلك نص الدستور، وحكم على وزير خارجيته، د. فاطمى بالإعدام.

وأقام الجنرال زاهدى. حكومة دكتاتورية. وعقد اتفاقا مع مجموعة شركات Consortium دولية لاستغلال البترول الإيرانى لمدة ٢٥ سنة. وتم عقد هذا الاتفاق فى سبتمبر سنة ١٩٥٤ ومنحتـه الولايات المتحدة منحة اسـتثنائية مقدارها ٤٥ مليونا من الدولارات. واسـتمرت مجموعة الشـركات هذه فى اسـتغلال البترول الإيرانى بنسـبة ٩٥٪ من الإنتاج الإجمالى للبـترول فـى إيران. بينما «الشـركة الوطنية للبترول» لم تكن تنتج إلا الخمسـة فى المائة الباقية. وابتداء من سـنة ١٩٥٨ منحت الحكومة الإيرانية امتيازات للكشـف عن البترول لشـركات أخرى، معظمها أمريكية بالتعاون مع الشـركة الوطنية للبترول. وفى ديسـمبر سـنة ١٩٦٦ عقدت الحكومة الإيرانية مع مجموعة الشـركات المذكورة اتفاقا جديدا يقضى بأن تسـترد الشركة الوطنية ربع الأراضى السـابق منح امتيازها لشركات أجنبية. وصارت الشركة الوطنية هى التى تقوم بنفسها بتسويق إنتاجها. ثم عقدت اتفاقات أخرى فى عامى ١٩٦٧، ١٩٦٩ زادت مـن عائدات الحكومة الإيرانية التى تحصل عليها من رسـوم إنتاج البترول وتصديره.

لكن نظرا لأساليب القمع التى لجأت إليها حكومة جنرال زاهدى، وانتشار الاستياء بين سـائر طبقات الشعب بسـبب قسوة الحكام المحليين وكانوا من رجال الجيش الذين عينهم زاهدى لحفظ النظام فى الأقاليم اندلعت الاضطرابات فى أماكن مختلفة من البلاد. وإزاء هذا السـخط الشامل اضطر الشـاه إلى عزل زاهدى وتكليف حسين علاء بتشكيل حكومة مدنية فى أبريل سنة ١٩٥٥.

وفى أكتوبر سـنة ١٩٥٥، انضمت إيران إلى حلف بغداد، الذى كان يتألف آنذاك من العراق، وتركيا، وباكستان، وبريطانيا. وهو الحلف الذى تحول بعد انسحاب العراق منه إثـر الإطاحة بالملكية فى ١٤ يوليو تموز سـنة ١٩٥٨ إلى الحلـف المركزى CENTO فى سـنة ١٩٥٩. وكانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تشـترك فى اللجنتين العسكرية والاقتصادية للحلف، دون أن تشترك اشتراكا كاملا فى الحلف كعضو فيه.

لكن حكومة حسـين علاء لم تسـتطع تحسـين الوضع المتدهور فى إيـران، على رغم المعونـات الكبيرة الأمريكية. واسـتمرت الاضطرابات والمؤامـرات، وجرت محاولة اعتداء على شـخص حسـين علاء فى نوفمبر سـنة ١٩٥٥، لكنه نجا منها. وأخيرا، فى أبريل سـنة ١٩٥٧، استقال حسـين علاء، وحل محله فى رئاسـة الوزارة منوچهر إقبال الذى

اتخذ سياسة أكثر اعتدالا فألغى الأحكام العرفية، وسهل قيام أحزاب سياسية، فقامت أحزاب سياسية أهمها حزبان: حزب «مردم»، «الشعب» الذى تأسس فى سنة ١٩٥٧، وحزب «مليون» (الحزب الوطنى) الذى تأسس فى فبراير سنة ١٩٥٨؛ وبعد ذلك بخمس سنوات، أى فى سنة ١٩٦٣، تأسس حزب جديد يدعى حزب «إيران نووين» «إيران الجديدة»، لكن هذه الأحزاب الثلاثة لم تكن ذات قواعد شعبية، إنما كانت تستند إلى التجار والموظفين.

وشكل مجلس للشيوخ «سينا» لأول مرة فى سنة ١٩٥٠، وكان يتألف من ستين عضوا، نصفهم يعينهم الشاه، والنصف الآخر ينتخبون (١٥ عن محافظة طهران، و ١٥ عن سائر المحافظات).

أما مجلس الأمة، أى مجلس شورای ملى، فكان يتألف من مائتى نائب، ينتخبون لمدة أربع سنوات بالتصويت وتزويرات عديدة فى الاقتراع، حملت الشاه على إلغاء هذا الانتخاب، واضطر منوجهر إقبال رئيس الوزراء إلى الاستقالة، وحل محله جعفر شريف إمامى، رئيس حزب «مليون» فأجرى انتخابات فى يناير سنة ١٩٦١، وفاز حزبه بالأغلبية الكبيرة فقامت الاعتراضات على صحة إجراء هذه الانتخابات، فألغيت. وأجريت انتخابات جديدة فى مايو سنة ١٩٦١، أسفرت عن تولى على أمينى، وكان زعيم المعارضة فى البرلمان، لرئاسة الوزارة. وكان سياسيا نزيها ووطنيا صادقا، فقام بمحاربة الفساد، وألقى القبض على الموظفين المتورطين فى أعمال القهر والبطش بالناس، وأمر بفتح تحقيق عن موارد الصحف، واستغل ذلك لإلغاء صحف المعارضة، وأعلن عن برنامج للاصلاح الزراعى، لكنه أخذ يبطش بخصومه، فأمر بنفى أعضاء جبهة د. محمد مصدق إلى جنوب البلاد، وبدلا من الإفراج عن د. مصدق بعد أن أمضى المدة المحكوم عليه بها فى السجن، وضعه تحت الإقامة الجبرية فى منزله!!

الثورة البيضاء

حاول الشاه محمد رضا بهلوى من ناحية أخرى القيام بما سماه بـ «الثورة البيضا» انقلاب سفيد»، أى الثورة الاجتماعية لإصلاح أحوال الفلاحين الذين يمثلون ٨٠٪ من شعب إيران، فأصدر قانونا للإصلاح الزراعى فى ١٥ يناير سنة ١٩٦٢ يقضى بأنه لا يجوز لمالك زراعى أن يملك أكثر من قرية واحدة، ومازاد عن ذلك تشتريه الدولة وتبيعه بعد ذلك

للفلاحين. وكان قانون الإصلاح الزراعى ضمن برنامج من ست مواد أجرى عليه استفتاء فى يناير سنة ١٩٦٣.

لما كانت الأراضى الزراعية الكبيرة المساحات يمتلكها إما كبار ملاك الأراضى الزراعية (زميندار)، وإما الأوقاف الدينية التى يشرف عليها ويتصرف فى ريعها كبار رجال الدين فقد امتلأت هاتان الطائفتان بالسخط على هذه «الثورة البيضاء» وراحتا تعملان على إثارة الكراهية ضد الشاه وموظفى الحكومة. مستغلة فى ذلك فساد الموظفين الذين أسند إليهم تنفيذ قوانين ولوائح هذه «الثورة» وعارضت الجبهة الوطنية البرنامج المؤلف من ست مواد، وقام رجال الدين بالتحريض على إخراج المظاهرات فى طهران وفى الأقاليم، بلغت أوجها فى يونيو سنة ١٩٦٣. وكان آية الله الخومينى على رأس رجال الدين الذين حرضوا على القيام بهذه المظاهرات.

وفى سبتمبر سنة ١٩٦٣ أجريت انتخابات جديدة وكان الشاه فى العامين السابقين يحكم بمراسيم تمخضت عن أغلبية ساحقة للمؤيدين للبرنامج الإصلاحى الذى حددته المواد الست وصارت فى المجلس الجديد ست سيدات نائبات.

وتولى رئاسة الوزارة حسين على منصور، من حزب «إيران الجديدة» (إيران نووين) لكن أحد رجال الدين أطلق عليه الرصاص فى مجلس شورای ملى فتوفى متأثرا بجراحه فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٦٥، وذلك لأنه استصدر قانونا فى سنة ١٩٦٤ بتحديد الملكية الزراعية. وكذلك جرت محاولة أخرى لاغتيال الشاه فى إبريل سنة ١٩٦٥، على أثرها تمت اعتقالات عديدة فى أوساط اليساريين ورجال الدين، وعلى رأسهم آية الله الخومينى. واتخذ البوليس السياسى «سافاك» إجراءات قمع شديدة فى هذه الأوساط، وبسبب هذه الاعتقالات وما أعقبها من إصدار أحكام قاسية من المحاكم العرفية اغتيل رئيس القضاء العسكرى فى أبريل سنة ١٩٧١.

لكن المعارضة كانت محصورة فى هذه الأوساط اليسارية والدينية، دون أن تمتد إلى سائر أفراد الشعب الإيرانى. ولهذا عندما أجريت الانتخابات فى ٢ يوليو سنة ١٩٧١ حصل الحزب الحاكم، وهو حزب «إيران الجديدة» (إيران نووين) على ٢٣٩ مقعدا من مجموع المقاعد وهو ٢٨٠.

وعندما احتفل الشاه احتفالا بالغ الفخامة بذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على الملكية الفارسية فى برسبولس، وذلك فى أكتوبر سنة ١٩٧١، أرسل آية الله الخمينى نداء من منفاه فى

النجـف (بالعراق) للعصيان المدنى، لكن نداءه ذهب أدراج الرياح. ولم يستجب له أحد كذلك لم يكن لقدامى السياسيين من كبار رجال الأحزاب البائدة مثل كريم سنجابى، وشهبور بختيار، ومهدى بازركان، وأحمد صدر وداريوش فروهر. تأثير يذكر فى الناس ولا فى توجيه البرلمان.

أما المعارضة النشطة الإرهابية فقد كانت تتولاها جماعتان. جماعة «مجاهدين خلق» (مجاهدى الشعب) واتجاههم إسلامى تقدمى، وجماعة «فدائيين خلق» (فدائيى الشعب) واتجاههم ماركسى. وكان نشاطهم يتمثل فى الاعتداءات على كبار رجال الدولة وعلى البنوك والمؤسسات الحكومية. وكان نشاطهم بارزاً فى إقليم مازندران، حيث توجد الغابات، على الساحل الجنوبى لبحر قزوين.

العرب والفرس

العرب والفرس قبل الإسلام وبعده جاران، ولم يسلم هذا الجوار من احتكاكات وحساسيات انطبعت آثارها على صفحات الأحداث على مر التاريخ.

كان العرب فى جزيرتهم يعيشون عيشة البداوة، قبائل متعددة، ومتنافرة غالبا.. لم ينتظم لهم ملك ولا سادهم حكم يجمع شملهم، ولم تكن لهم بالتالى حضارة كتلك التى قامت فى الدولتين المجاورتين لهم من الشرق والشمال: فارس، والروم، وقد عرفت أرض فارس وشعبها الملك من قديم، وإن تعددت هذه الممالك أحيانا. حتى جاء الإمبراطور «قورش» أو «كورش»[1] ووحد هذه الممالك، وأقام أول إمبراطورية وحدت البلاد، واستولت على آسيا الصغرى «مملكة ليديا» فشملت مملكته أرض فارس شمالا وجنوبا، ومملكة بابل فى العراق إلى آسيا الصغرى الأناضول، أرض الدولة التركية الآن، حتى أشرف ملكه على البحر الأبيض المتوسط.

وفى عام ١٩٧١ احتفل إمبراطور إيران بمرور خمسة وعشرين قرنا على تأسيس أول إمبراطورية فارسية على يد «قورش»، اعتزازا منه بعرقه الفارسى وتاريخه، ولقب نفسه «شاهنشاه آريامهر» أى ملك الملوك حبيب الأريين، اعتزازا منه بعنصره الآرى، الذى يعتبره متفوقا على الجنس السامى، الذى منه العرب.

وكان العرب بحكم تفرقهم- قبائل متعددة- تطويهم فارس تحت جناحيها لاسيما المنطقة الشرقية، المجاورة لها، فى شرق الجزيرة العربية وشمالها، والعراق.. كما كان

(١) ظهر كشخصية فذة سنة ٥٥٩ قبل الميلاد وتوفى سنة ٥٢٩ ق. م.

الرومـان البيزنطيون يسـيطرون على أرض الشـام وشمال الجزيرة العربيـة الغربى ومصر والشمال الإفريقى.

وكانـت فارس والروم الدولتين المتحضرتين القويتين حينذاك.. وكثيرا ما وقعت بينهما الحروب وتبادلا النصر والهزيمة.

ومع أن العرب كانوا بدوا، وقبائل متعددة، إلا أنهم كانوا شجعانا شم الأنوف، لذلك لم تسـلم حياتهم من الاصطدام بالدولة القوية الفارسية التى كانت تنظر إليهم بعين الازدراء. ففى أيام «كسـرى سـابور الثانى»[1] تم التنكيل بالعرب، وأسـر الكثير منهم، وبلغ حنقه عليهم ما يذكره الثعالبى فى تاريخه، أنه نزع أكتاف خمسين ألف أسير عربى حتى سمى «بذى الأكتـاف»، حيـث كان يربط كل يد من أسـير برباط مشـدود إلى حصان، ويجرى الحصانان فى اتجاهين مختلفين فتنزع اليدان من عند الكتفين، أو كان ينقر عظم اليد عند اتصالها بالكتف فى رواية أخرى.

وفى أيام «كسرى أنوشروان»[2] ذهب وفد من العرب إليه، على رأسه «النعمان بن المنذر» وأحسوا أنه ينتقصهم، فتحداه بذكر فضائل العرب، بكلمة ألقاها تفاخر فيها بهم، وأنهم يفضلـون أيـة أمة تقار بهم، وتبعه حاجب بـن زرارة، وأكثم بن صيفى وغيرهم، يفخرون بفضائل العرب على الفرس، مما كان تحديا سافرا له.

ثم كانت بعد ذلك موقعة «ذى قار» قرب الكوفة بين بنى شيبان وجيش فارس، وكانت موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان ومن معهم، على جيش الفرس الذى هزم هزيمة منكرة، بفضل شـجاعة العرب وثباتهم وحميتهم. وكانت سـنة ٦١٠ م بعد ميلاد الرسول ﷺ وهو شـاب وقبل البعثة وكان الرسـول ﷺ يقول عن يوم النصر هذا، هذا أول يوم انتصف فيه العرب لأنفسـهم من العجم، وقد سمع الرسـول بما حدث وهو شـاب، وسـرت فى نفسه النشوة والفرحة كأى عربى آخر.

هكـذا كانت روح العداء بين الفرس والعرب قبل الإسـلام، الفـرس يدلون بحضارتهم وقوتهم وعنصرهم على العرب، والعرب برغم فقرهم وتفرقهم وضعفهم، يشمخون بأنوفهم،

---

(١) فى تاريخ إيران «سابور الأول» تولى الملك سنة ٢٤٢ م، أما «سابور الثانى» فقد تولى الملك من سنة ٣٠٩ – ٣٧٩ م وحكم سبعين سنة – انظر «قادة فتح فارس ص ٥٢ للواء الركن محمود شيت خطاب الطبعة الأولى».

(٢) تولى الملك سنة ٥٣١ بوصية من أبيه «قباذ».

ويعتـزون بأنفسـهم ومزاياهم التـى لا يجدونها فى الفرس. وهـم وإن خضع بعضهم لقوة الفرس. إلا أنهم لم يكونوا يتسـاهلون فى عزتهم وكبريائهم ويجابهون حتى ملوك الفرس بالحديث عن هذه المفاخر[1].

وحين أخذ الرسـول يوجه كتبه إلى الملوك والرؤسـاء يدعوهم للإسلام فى السنة السابعة فـى الهجرة، بعد عهد الحديبية، كان كسـرى ممن أرسـل إليهم كتابـا حمله الصحابى عبد الله بن حذافة السـهمى؛ فلما بلغ كسـرى الكتاب، استشـاط غضبا ومزقه. إذ كيف يجرؤ عربى بدوى أن يرسـل له بمثل هذا ويقول له «أسـلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس»؟ كيف يجرؤ على مثل هذا التهديد والإنذار!

فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ ودعا عليه، وقال «مزق الله ملكه». وقد كان..

ولم يكتـف كسـرى بهذا، بل كتـب إلى واليه على اليمن «باذان» يأمره بأن يرسـل لهذا الرجـل «محمـد ﷺ» برجلين جلدين ليأتيا به إليه وننفذ باذان الأمر وجاءا للرسـول، وبلغاه مهمتهما، فأخبرهما بأن كسـرى ثار عليه ابنه «شـيرويه» وقتله، فتعجبا. وحملهما الرسول حين رجوعهما دعوة إلى «باذان» أن يسلم، ويبقى واليا من طرفه على اليمن... فعجب «باذان» من هذا، ولكنه بعد قليل تلقى كتابا يخبره بما حدث من قتل شيرويه لأبيه، وفيه أمر له بألا ينفذ وصية أبيه فى هذا الرجل «محمد ﷺ» ولكنه كان قد بدأ فى تنفيذها بإرسال رسله، ثم انتهى أمره إلى أن أسلم، وظل مكانه عاملا للرسول على اليمن، بعد أن ضعف أمر الفرس.

لقد كان الفرس يسيطرون على الأراضى العربية الشرقية، بدءا من جزء كبير من العراق.. وقـد نقلـوا عاصمتهم بعـد هذا التوسـع إلى أرض الرافدين ونزلوا جنوبا إلى شـرق الجزيرة العربية، مما يشمل ما يسمى الآن بدول الخليج ونفذوا داخليا حتى استعمروا اليمن، وكانوا يعملون على إذلال العرب، وينكلون بمن يخرج منهم على سلطانهم، فكان من هؤلاء العرب من جُند فى جيش الفرس، لمحاربة العرب المسلمين عندما اتجهوا للعراق وفارس.

ولم ينس أصحاب رسول الله ﷺ الذين صار لهم الحكم بعده، رد كسرى على خطاب الرسـول ﷺ، وأمـره لعامله على اليمن أن يأتيه بهذا الرجـل محمد ﷺ، ولم يفتهم أنه يسيطر على جزء كبير من أرضهم، وعندما انتقل الأمر لخلفاء رسول الله بدأوا يتطلعون إلى بلاد فارس والروم، وبدأت الجيوش الإسلامية خطواتها للقضاء على حكم كسرى.

(١) الشيعة. المهدى. الدروز – تاريخ ووثائق – كتاب الحرية سنة ١٩٨٧ – ص ٢٨. د. عبد المنعم النمر.

أرسل سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه المغيرة بن شعبة الثقفى إلى رستم قائد الفرس قبيل معركة القادسية، فأقبل المغيرة حتى جلس مع «رستم» على سريره المعد له. فوثب عليه رجال رستم حيث لم يتعودوا أبدا مثل هذا. وأنزلوه فقال لهم: «قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام» (العقول). ولا أرى قوما أسفه منكم. إنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضا. فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، فكان أحسن من الذى صنعتم أن بعضكم أرباب بعض!! «فقال عامة الناس: صدق والله هذا العربى، وقال رؤساؤهم: لقد رمى - والله - بكلام لازال عبيدنا ينزعون إليه».

وحقق المسلمون عددا من الانتصارات، ولكن الموقعة الفاصلة كانت بقيادة سعد بن أبى وقاص سنة ٦٣٦م حين التقى جيشه بجيش الفرس بقيادة القائد «رستم» فى القادسية، وانتهى القتال الذى استمر ثلاثة أيام بهزيمة الفرس. وقتل رستم.

وتقدم العرب المسلمون نحو العاصمة «المدائن» بعد ذلك عام ١٣هـ - ٦٣٧م - ففتحوها ودخلها سعد ظافرا.

ثم حاول الملك محاولة أخيرة فجمع جيشه واشتبك مع المسلمين عام ١٩هـ - ٦٤٢م - فى موقعة «نهاوند» وانتصر فيها المسلمون، وقضوا على كسرى وجيشه، وقد أسر «الهرمزان» وجىء به للمدينة. وسقطت نهائيا الدولة الفارسية، وبدأ المسلمون حكم فارس، ومنذ ذلك الحين فقدت فارس استقلالها، وأصبحت ولاية من الولايات العربية.

ولقد وجد عامة الفرس فى الإسلام ومبادئه الخلاص مما كانوا فيه، فأقبلوا عليه، لكن كان هناك من وجد فيه قضاء على مصالحه، وعظمته وعز عليه أن يرى دولته العظيمة ذات الحضارة والسلطان، قد ذهبت للعرب الذين كانوا ينظرون إليهم بازدراء، ولم يكن لهم دولة كدولتهم، ولا حضارة كحضارتهم.

فاشتعل قلب هؤلاء بالحقد على الإسلام، الذى أتى بهؤلاء العرب إليهم، ولم يجدوا من السهل عليهم أن يقبلوا الدين الجديد. كما قبله عامة الشعب الذين لم يكن لهم مصالح فى الحكم.

لكن لم يكن لهؤلاء السادة قوة ولا حيلة يواجهون بها قوة المسلمين، فتظاهروا بالإسلام والسير مع التيار لا ضده ليعيشوا وليكون سهلا عليهم أن يعملوا لتخريبه من الداخل، وينتقموا بذلك منه حين تواتيهم الفرصة.

ولأن الحقد ينبت من بين الضعف والطموح فإنه يتنفس من خلال التآمر.

وكانت فاتحة هذا التآمر اغتيال الخليفة عمر رضي الله عنه الذى وجه إليهم جيشه ونفذ هذه المؤامرة أبو لؤلؤة المجوسى، حيث قتله وهو يصلى الصبح وقد ظنوا أنهم بهذا يقوضون الدولة الإسلامية، ويبددون جيشها الرابض على أرض فارس، ويستعيدون بذلك ملكهم وسيادتهم، ولكن الدولة ظلت فى طريقها، وحمل الصحابة الراية والأمانة بعد مقتل ابن الخطاب، لكن المتآمرين فرحوا بما وصلوا إليه، ومازالوا حتى الآن يحتفلون بذكرى هذه الحادثة كأنها عيد من أعيادهم! كما أقاموا ضريحا فاخرا لفيروز أبو لؤلؤة وعدوه بطلا فارسيا.

ولم تتوقف مؤامرات القيادات الفارسية، وإن لجأوا إلى التستر والنفاق، كما حرصوا على إظهار إسلامهم والتزين بالزى العربى والانتماء إلى القبائل العربية الكبرى انتماء ولاء، وسموا أبناءهم أسماء عربية، وكذب الكثيرون منهم، وفى مقدمتهم زعماؤهم السياسيون، فادعوا تحدرهم من أصلاب أهل بيت النبوة، ودفعوا أبناءهم إلى تعلم العربية وإتقانها، وقراءة القرآن والحديث والتفقه والتأدب، والكتابة، وقرض الشعر، لاتخاذها وسائل يفسدون بها الفكر، كما جاء على هذا صريحا فى قول واحد منهم وأيدته أفعالهم، حيث قال «نرفض فى الظاهر ما بيننا من عداوة، ونظهر موافقتهم ومساعدتهم، وندخل فى دين محمد، ونؤمن به، ثم نفسد عليهم دينهم بلطيف الحيل، وندرك منهم بذلك ما لا يمكن إدراكه بالقهر والغلبة، فسلموا - كما قال المسعودى - ظاهر الشريعة، ولكن ذهبوا يقولون فى تأويل معانيها، ويأمرون المدعو عند أخذ العهد عليه بستر ما يكشفونه له من كتاب الله، وتأويل التأويل ويسمونها «البلاغ» وغير ذلك من دعواتهم، ووجوه سياساتهم وأسرارهم ورموزهم.

وفى كتابى الغزالى: «فضائح الباطنية» و«فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» وكتب الفرق والنحل تفاصيل هذا الإجمال للمخطط الذى رسموه لأبطال الإسلام تحت «غطاء الإسلام».

وقد ذكر العلامة الشيخ الأثرى بعد ذلك مظاهر من أفعالهم التى جاءت وفق خطتهم هذه من تدبير قتل الخليفة عمر، وتدخلهم فى الشغب على الخليفة عثمان وتدبيرهم مع القائد الفارسى «زادوية» أيام الإمام على مؤامرة مع الخوارج لقتله هو ومعاوية وعمرو بن العاص، وفى أيام الدولة الأموية لم يقعدوا عنها، وتآمروا عليها فى السر مع بنى العباس، وتولى الأمر أبو مسلم الخراساتى، وهو من سلالة «يزدجرد» الملك الساسانى.

وكانت نياتهم متباينة وكان ما يضمره الخراسانيون غير ما يضمره العباسيون، ولم يخف على العباسيين أن القوم يتخذون من اسمهم غطاء، وفى أنفسهم أن يكروا عليهم بعد النصر فيزيحوهم، وينقلوا الدولة إليهم، ويجعلوا الحكم فارسى الوجه واليد واللسان.. إلخ.. ولذلك تنبهوا لأبى مسلم الخراسانى، وقضوا عليه فى بادئ الأمر.

من هم الشيعة؟

كلمة «شيعة» تعنى الأحباب والأنصار والأتباع، وجاء فى مفردات القرآن فى مادة «شيع»: الشياع. الانتصار والتقوية، يقال شاع الخبر أى كثر وقوى، والشيعة: من يتقوى بهم الإنسان، وينتشرون عنه، يقال: شيعة وشيع وأشياع، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[1] وقوله ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[2] وكان يطلق على أنصار معاوية أنهم شيعته، وكذلك عبد الله بن الزبير، أو عثمان رضى الله عنهم، كما تطلق هذه الكلمة الآن.

فأية جماعة متجانسة مجتمعة حول فكر أو مبدأ أو رجل واحد.. يقال عنها: إنها شيعة هذا الفكر أو المبدأ أو الرجل.. أى أنصاره وأحبابه.

ولذلك أطلق على المسلمين الذين يخصون عليا رضي الله عنه بالحب، ويتعصبون له، على أنه كان الأولى بالخلافة من أبى بكر وعمر وعثمان، وأن الحكم بعد الرسول ﷺ مباشرة هو لعلى ولذريته من بعده إلى يوم القيامة، واتخذوا لهم فكرا خاصا، مبنيا على عقيدتهم فى الإمام على وأحقيته بالخلافة، فعادوا أبا بكر وعمر وتعدوا عليهما بالألفاظ السيئة، وصلت إلى حد لعنهما هما وكل من التف حولهما من أصحاب رسول الله ﷺ، وزوجاته كالسيدة عائشة والسيدة حفصة إلخ..

قيل عن هؤلاء: إنهم شيعة، أى شيعة[3] علىّ وبنيه..

والمقطوع به أن أهل السنة يجلون آل البيت جميعا لقربهم من رسول الله ﷺ، ولكنهم يفرقون بين هذا الحب الدينى العاطفى، وبين موضوع الحكم والسياسة.. وأحقية على رضي الله عنه فى الحكم بعد رسول الله ﷺ مباشرة.. فهذا شىء، وذاك شىء آخر[4].

---

(١) سورة الصافات الآية ٨٣ وتعنى أن إبراهيم من شيعة نوح السائرين على طريقه فى الدعوة إلى التوحيد.

(٢) سورة القصص الآية ١٥ وهى فى شأن موسى وهو شاب فى مصر حين دخل المدينة فوجد فيها رجلين يقتتلان واحدا من شيعته بنى إسرائيل والآخر مصرى يعادى بنى إسرائيل فى مصر وينبذهم.

(٣) وهم الذين يحبون عليا.

(٤) الشيعة. المهدى. الدروز – تاريخ ووثائق– د. عبد المنعم النمر– كتاب الحرية سنة ١٩٨٧– ص ٣٦.

لكـن الشـيعة ركزوا فكرهم على الحكم وأحقية علىّ فيـه، هو وذريته إلى يوم القيامة. ورووا فى ذلك روايات لم تصح عند أهل السـنة، وزادوا على أركان الإسـلام الخمسة كما وردت فى حديث رسول الله «بنى الإسلام على خمس....«وزادوا ركنا سادسا، وهو الإيمان بالإمـام المعصوم وهو علىّ وبنوه من بعـده، على طريقة النص عليه بولاية عهده، وأن هذا الإمام هو الخليفة والحاكم للمسلمين حتى قيام الساعة».

ومن لم يؤمن بالركن السادس «فليس بمؤمن»، كما تنص على ذلك كتبهم وكما يتحدث علماؤهم الخواص. لكن هذا سـرى إلى عامة الشـيعة بأن من لم يؤمن بما يؤمنون به فليس بمسلم، وهو مخلد فى النار.. شأن من لم يؤمن بالله، وبوجوب الصلاة.. الخ.

ولذلك يشيع فى ذهن عامة الشيعة اعتقاد بأن السنة كفار، وإن كان علماؤهم يتحفظون علـى ذلـك ويقولون: هو كلام العامـة الجهلاء! ولكن من الذى علم هـؤلاء وأوحى إليهم بفكرهم هذا؟

ثم كيف نجد فى كتبهم التى ألفها كبار حكمائهم بالطبع إصرارهم على لعن الخليفتين أبى بكر وعمر، ووصفهما بأحط الأوصاف التى يأنف من الاتصاف بها مسلم عادى، أو أى إنسان عادى بدعوى أنهم انتزعوا الحكم من على؟

ثم كيف نجد علماءهم حتى الكبار والقادة منهم يتحدثون- حتى الآن- ويكتبون أن أبا بكر وعمر وعثمان كفار؟! وأنهم خالفوا القرآن والسـنة عمدا؟ وذلك بتوليهم الحكم وإبعاد علىّ عنه وهو الأولى به والمتعين له؟

وهم يعتمدون فى ذلك على حديث قالوا إن الرسـول قاله، وهو راجع من حجة الوداع عنـد «غديـر خم» وعين عليًا ليخلفه فى حكم المسـلمين، وهو حديث لم يصح بهذا المعنى عند أهل السـنة، ومحال أن يكون الصحابة أو بعضهم قد سمعوا هذا الحديث عن الرسول ثم خالفوه، ولا سـيما أبو بكر وعمر، ولو عـرف الصحابة هذا الحديث وهو فى أمر عظيم وليس سريا ما اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة، والرسول لا يزال مُسجى فى بيته، ليختاروا خليفة من بعده، وقد بدأ الأنصار ذلك ثم لحقهم المهاجرون.

فلو أن هذا الحديث قد عين عليًا لسمعه أو سمع به الصحابة وعرفوه، وقد مكث الرسول ﷺ بعد عودته نحو ثلاثة أشـهر. لقام من سمعـوه حين الاختلاف على من يكون خليفة - وكان خلافا خطيرا وقالوا لهم: أريحوا أنفسكم، فالرسول عين عليًا خليفة من بعده، ولم يكن هذا ليخفى على كل هؤلاء الصحابة، وما كانوا ليعصوا أمرا للرسول.

فالرسول – إذن – لم يختر عليًا ليكون خليفة وحاكما بعده ويتسلسل الحكم فى ذريته، ولم يرسل ليكون من مهماته أن يورث الحكم لأقاربه وأهل بيته. وإنما ترك أمر خليفته لاختيار المسلمين عملا بمبدأ الشورى. وإن كانت له إشارات لها معناها، لمن تتجه إليه الأنظار، ويوضع موضع الترشيح. وهو أبو بكر حين رضيه ليقوم مقامه فى إمامة المسلمين فى الصلاة. وكان علىّ حاضرا، وعمر.

ثم كيف يأمر القرآن بالشورى ويمدح من يأخذ بها، ويجعلها صفة للمؤمنين فيأتى الرسول فيجهز عليها، ويخالف أمر ربه، فى أهم أمر من أمور المسلمين، وهو الحكم ويعين عليهم عليًا وذريته حكاما إلى يوم القيامة؟! إن الحاكم هو الذى يختاره المسلمون. ولو كان عبدا حبشيا، ولكن الشيعة ذهبوا إلى غير هذا، واعتبروا الخلفاء الراشدين قبل علىّ معتدين وكفارا.

وفى كتاب «كشف الأسرار» الذى كتبه آية الله روح الله الخمينى وصدر عن المطبعة الإسلامية بطهران عام ١٩٤١ جادل الرجل مخالفيه من أهل السنة وساق الأدلة على صحة الاعتقاد بالركن السادس «الإمامة» وضرورة الإيمان به لكل مسلم.. وينتهى إلى الآتى:

١ – مخالفة أبى بكر لنصوص القرآن[١]

حيث تحدث عما جاء فى القرآن عن وراثة الملك ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٢]، ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾[٣]، الخ ليخرج من هذا بصحة نظريتهم فى أن عليًا يرث الملك والحكم عن الرسول ﷺ.

ثم أخذ يسوق أدلته على أن أبا بكر خالف نصوص القرآن حسب هواه وخطته لإبعاد آل البيت عن الحكم واضطهادهم فى معيشتهم حين اخترع حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

٢ – مخالفة عمر لكتاب الله

ويذكر أحداثا يستنتج منها ما يريده.. ويأتى بما حدث من الرسول ﷺ حين طلب أن يكتب لهم كتابا.. إلخ وقول عمر فى ذلك.. ثم يقول بعد أن أورد مصادره:

---

(١) ص ١١١ من الكتاب المذكور.

(٢) سورة النمل الآية ١٦.

(٣) سورة مريم الآيات ٥– ٦.

وهـذا يؤكد أن هذه الفرية صدرت من ابن الخطاب المفترى «هكذا!!» ثم بعد سطرين يقـول عـن كلمات ابن الخطاب فى هذا إنها «قائمة علـى الفرية، ونابعة من أعمال الكفر والزندقة»، وفى الصفحة نفسـها كتب عنوانا، خلاصة كلامنا حول ذلك: قال تحته «من جميع ما تقدم يتضح أن مخالفة الشـيخين للقرآن لم تكن عند المسـلمين شـيئا مهما جدا» ويعلل ذلك بأنهما لم يكونا يستمعان لرأى أحد، ولا كانا مستعدين لترك المنصب، ولا كان أهل السـنة مسـتعدين للتخلـى عنهما، حتى لو قـال عمـر: إن الله أو جبريل أو النبى قـد أخطـأوا فى إنزال هذه الآية، كمـا قاموا بتأييده فيما أحدثه مـن تغييرات فى الدين الإسلامى!!.

إلى هذا الحد يكتب «خومينى» عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، يكتبه لأتباعه أولا ليغرس فيهم، كما غرس فيهم سابقوه كل فى زمانه، هذا الاعتقاد فى أبى بكر وعمر.. وهو بالطبع اعتقاد غير صحيح بالمرة.

ولذلـك لم يكـن عجبا ولا بعيدا ما نقل عن أقوال الخومينـى وكتبه من أنه يطلق على الشـيخين: الجبت والطاغوت، ويسـميهما «صنمى قريش»، ويـرى كجماعته أن لعنهما واجب، وأن لعنهما ولعن السيدة عائشة، والسيدة حفصة، له ثواب عند الله «هكذا» وكذلك الحال بالنسبة للخليفة عثمان رضي الله عنه[1].

❑❑❑

(١) كشف الأسرار ص ١٠٧.